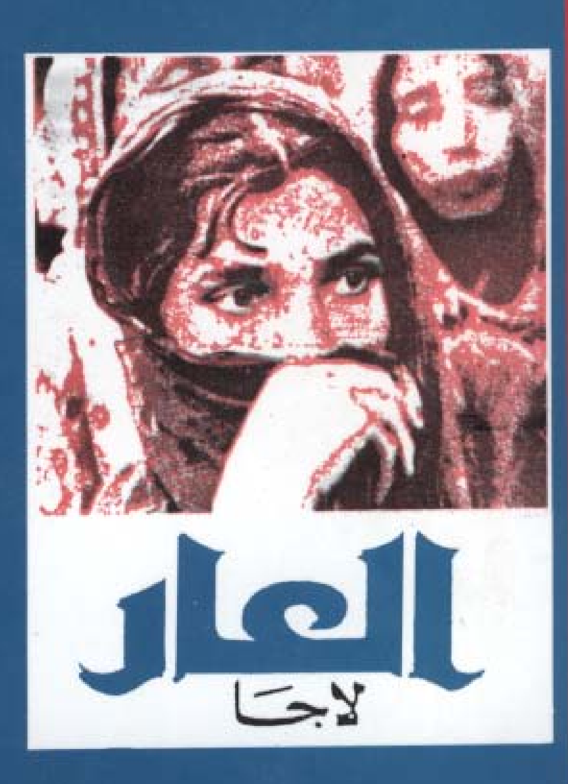
افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين



على الإسلام والمسلمين

د. إبراهيم عوض

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية

تسليمة نسرين

على الإسلام والمسلمين

دراسة نقدية لرواية « العار »

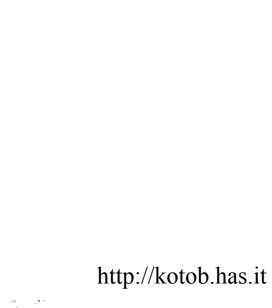

FACILITY

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية
تسليمة نسرين
على الإسلام والمسلمين

دراسة نقدية لرواية « العار »

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق
١٩٩٦ م



المقدمــــة

فى « أهرام » الاثنين ٢٤ يونيه ١٩٩٦ م كتب الأستاذ رجاء النقاش مقالا بعنوان « الغاضبة » يدور حول الكاتبة البنغالية المعروفة تسليمة نسرين وروايتها « العار » ، وذلك بمناسبة صدور الترجمة العربية لهذه الرواية بقلم الكاتب الصحفى الأستاذ عصام زكريا .

وقد احتوى مقال الأستاذ النقاش على عدة قضايا : أولاها رأيه فى الترجمة ، التى وصفها بالامتياز والدقة والروعة . وكنت قد اشتريت الكتاب وقرأت شطرا كبيرا منه فلفت نظرى كثرة الأخطاء النحوية والصرفية والأسلوبية فيه (وإن كانت هناك كتابات كثيرة مما يصدر هذه الأيام أكثر أخطاءً وأشنع) ، ومن هنا فقد أثار هذا الإطراء الشديد عجبى واستغرابى ، إذ كيف يمكن أن يصف كاتب كالأستاذ رجاء مثل هذه الترجمة الكثيرة الأخطاء بما وصفها به ؟ ثم قلت لنفسى : لابد أن أحصل على النص الإنجليزى لأقابل بينه وبين الترجمة العربية ، فلعل رجاء النقاش لم يهتم بصحة الأسلوب العربى بقدر ما اهتم بسلامة النقل عن الإنجليزية . وقد بذلت أنا وبعض الأصدقاء جهدا مضنيا حتى ظفرنا بصورة من الكتاب ، وعندئذ

شرعت فى عملية المقارنة .

وخلاصة النتيجة التى خرجت بها من تلك العملية هى أن الترجمة صحيحة فى قسم من الكتاب ، على حين أنها ليست أكثر من ترجمة تقريبية فى قسم كبير منه ، أما القسم الثالث والأخير فيشتمل على عدد غير قليل من الأخطاء . وذلك كله غير الصفحات والفقرات والسطور والجمل الكثيرة التى أهملتها الترجمة عمداً أو سهواً لهذا السبب أو ذاك . أى أن حكم الأستاذ رجاء النقاش على الترجمة بالدقة والامتياز والروعة ليس له ما يسوّغه من هذا الجانب أيضا . على أن هذا ليس كل شىء فى هذه القضية ، فإن رجاء النقاش لم يقرأ الأصل الإنجليزى الذى ترجم عنه الأستاذ عصام زكريا . وهذا ليس كلاما من عندى ، بل هو كلامه فى المقال الذى نحن بصدده . ومن ثَمّ فإننا نسأل : هل يصح أن يصدر ناقدٌ حكماً على ترجمة من الترجمات دون أن يقوم بالمقارنة بينها وبين الأصل ؟

الحقيقة أننى لا أدرى كيف وقع ذلك من الأستاذ النقاش ، الذى أحرص على قراءة ما يكتب لما يتضمنه من مسائل تثير الفكر والوجدان ، رغم اختلاف الموقف الفكرى بيننا فى بعض الأحيان .

والمرجو ألا تغلبنا اعتبارات المجاملة أو التشجيع أو الاتفاق فى التوجه الفكرى على أنفسنا فتدفعنا إلى إصدار مثل هذا الحكم الجزاف ، فإن الكلمة أمانة ، وما دفعنى إلى هذا الكلام إلا رغبتى فى أن تظل صورة النقاد ثابتة متماسكة فى أعين القراء لا يعتريها اهتزاز .

ثانية هذه القضايا التى أثارها مقال الأستاذ النقاش قوله عن « عار » تسليمة نسرين إنها رواية ساخنة وجريئة وشجاعة ، وإنها مَثَلٌ من الأمثلة العالية على ذلك الأدب الغاضب من أجل قضية إنسانية هى قضية الصراع الطائفى بين المسلمين والهندوس فى بنجلاديش.

والحق أن الرواية تظلم المسلمين فى بنجلاديش ظلماً شديداً ، إذ تلصق بهم كل ما يخطر وما لا يخطر على البال من نقائص ، وتصورهم وكأنهم وحوش آدمية : فهم يقتلون الهندوس ، ويغتصبون نساءهم ، ويدمرون معابدهم ، ويحرقون بيوتهم ، ويسرقون محلاتهم. والأرقام التى تذكرها الرواية فى هذا السبيل أرقام رهيبة لا تقنع أحداً . ولو أن عشر معشار ما ادعته الرواية على المسلمين هناك قد وقع فعلا لكانت فرصة لآلة الإعلام الغربية الجهنمية لتضع المسلمين على السَّفُّود وتشوى جلودهم حتى تنضج فتبدل بها غيرها ليذوقوا

العذاب من جديد ... وهكذا دواليك .

ومع ذلك فإن بعض السياسيين الهنود قد استغلوا الرواية فى طمس جرائم الهندوس ضد المسلمين فى الهند ، زاعمين أن مسلمى بنجلاديش هم الذين يعتدون على الهندوس .

ثم إن الكاتبة لم تدع روايتها تتحدث بنفسها عن ذلك ، بل النُّقُولُ والإحصاءات والأرقام المجردة هى التى كانت تتكلم . إن أية رواية هى عمل فنى ، والعمل الفنى غير البحث والمقال . وقد كان المفروض أن تخاطبنا المؤلفة من خلال الحوادث والشخصيات والحوار والوصف لا أن تجعل وسيلتها إلى ذلك النُّقُولَ والاقتباسات فى المقام الأول . ولا يشفع لها فى هذا أن تكون روايتها من النوع الذى يُطْلَق عليه « الرواية التسجيلية » كما ذكر الأستاذ رجاء النقاش ، إذ إن « الرواية » (تسجيلية كانت أو لم تكن)هى عمل فنى قبل كل شىء . ومن هنا فإن القارئ يفتقد فى « عار » الكاتبة البنجلاديشية هذه السخونة التى ذكرها الأستاذ رجاء. إنها فى الحقيقة رواية فاترة !

وفضلا عن ذلك فكثير من حوادثها الرئيسية التى وجهت مسارها يفتقر إلى الواقعية . ويكفينى هنا أن أشير إلى ما زعمته الرواية من اقتحام بعض الشبان المسلمين بيت سورنچان بطل القصة الهندوسى

أثناء غيابه ، واختطافهم أخته مايا تحت سمع وبصر الأب العاجز طريح الفراش والأم الواهنة الضعيفة التى لم تستطع أن تصنع لابنتها شيئا . لقد انطلق سورنچان ، بعد أن عاد إلى البيت وعلم بالحادثة ، يجوب شوارع المدينة هو وصديقه المسلم حيدر على الدراجة البخارية الخاصة بهذا الأخير ، بيد أنهما لم يعثرا لها على أثر . وبعد عدة أيام بَلَغَ الأسرةَ أن جثةً تشبه مايا قد عُثِر عليها أسفل أحد الجسور . فماذا كان رد فعلهم ؟ لقد قرروا ألا يذهبوا للتحقق من الجثة. والسبب ؟ السبب هو أنهم يريدون أن يظلوا عائشين على أمل عودتها يوماً ، بخلاف ما لو ذهبوا ووجدوا أن الجثة هى جثة ابنتهم فإنهم عندئذ سوف يفقدون الأمل إلى الأبد !!! ثم بعد يوم آخر تتخذ الأسرة قرارا بالهجرة إلى الهند حيث تستطيع أن تعيش فى أمان بين الهندوس من أمثالهم بعيدا عن أكلة لحوم البشر من المسلمين دون أن تخطر لأى منهم مايا على بال ، وكأن اختطافها قد مضت عليه بضعة عقود من الأعوام لا أيام معدودات !!! أيمكن أن يصدق أحد هذا؟ إنها البلاهة الفنية بعينها !

ويقول الأستاذ رجاء النقاش أيضاً إن الرواية تخلو من أية شبهة تشير إلى أن الكاتبة معادية للإسلام ، بل العكس هو الصحيح ،

فالكتاب دليل على أن صاحبته تفهم الإسلام على وجهه السليم فى دعوته الأصيلة للرحمة والتسامح والدفاع عن الضعفاء والوقوف بجانبهم . وهذه هى القضية الثالثة ، ولا بد أن نذكر بالتحية أولا الكلمةَ الجميلةَ التى أنصف بها الكاتب دينه ، تلك الكلمة التى تنم عن غيرة أصيلة على الإسلام ، الذى يستحق كل حب وإعجاب لعبقريته العظيمة ومبادئه الرائعة البديعة التى قلما نجد لها نظيراً فى أى دين من الأديان أو فلسفة من الفلسفات ، وإن وُجِدت فليس بهذا الحسن ولا بذاك الكمال .

لكن ليسمحْ لنا الأستاذ رجاء أن نخالفه فيما قاله عن حب تسليمة نسرين للإسلام وحسن فهمها له ، فالرواية تنحاز انحيازاً تامّا للهندوس وكل ما هو هندوسى ، وتسىء إلى المسلمين وتؤذيهم إيذاء شديدا ، ولا تستطيع أن تجد لهم ولو حسنة واحدة ، على حين أنها تعمل بكل وسيلة على التهوين من تعصب الهندوس ضد المسلمين فى الهند وعدوانهم الإجرامى الفظيع عليهم . وهى تدعو إلى « قمع » الجماعات والأحزاب الإسلامية أينما كانت ، وتبدى ابتهاجها بما فعله العسكر فى الجزائر إثر نجاح جبهة الإنقاذ الإسلامية هناك فى الانتخابات التى عقدتها وأشرفت عليها الحكومة

المعادية لهذه الجبهة ذاتُها . ليس ذلك فقط ، بل هاجمت المؤلفة الإسلام أيضا فى حوار لها مع أحد الصحفيين الهنود نشرته إحدى الجرائد الهندية ، واتهمت القرآن الكريم بأنه متخلف عن العصر وأنه معاد للمرأة ...إلخ . ترى أهذا هو الحب والفهم اللذان يقصدهما الأستاذ رجاء النقاش ؟ ما كنت أظن أن الأمور يمكن أن تُقْلَب ويُجْعَل عاليها سافلها على هذا النحو وبتلك البساطة .

الحق أن هذا أكثر مما يحتمله الضمير . ومع ذلك فإن لتسليمة نسرين وغير تسليمة نسرين أن تقول ما تشاء ، وتعتقد ما تشاء . لكن هذا شىء ، وتبديل الحقائق شىء آخر .

وبالمناسبة ، فقد سمعت أن ترجمة الرواية قد صودرت ، وهو إجراء لا نحبذه ، فالرد العلمى كفيل بإيضاح الحقائق ووضع كل شىء فى نصابه ، والإسلام أقوى مما يتصور أى إنسان .

كذلك فقد سارعت حكومات الدول الغربية وبسطت حمايتها على الكاتبة . وهذه الدول حرة فيما تتخذه من سياسات ومواقف . لكننا فقط نتساءل : هل كانت هذه الحكومات لتهيج وتموج على هذا النحو لو كانت تسليمة نسرين تحب الإسلام حقا ؟ إن هذه الدول هى نفسها التى أصيبت بالصمم والبَكَم عندما قدّم اليهود فى

فرنسا الأستاذ رجاء جارودى للمحاكمة لا لشيء إلا لأنه كتب بحثا علميا تناول فيه إحدى المسائل التاريخية المحضة التى لا تمس عقيدة أحد أو تتطاول على دين من الأديان ، بل كل ما قال الرجل وقدم عليه الأدلة العلمية المفحمة هو أن حكاية أفران الغاز التى يقال إن هتلر قد أحرق فيها اليهود هى مجرد أسطورة خلقها الصهاينة خلقاً بغية إحراز بعض المكاسب السياسية على حساب العرب والمسلمين . فما الذى يثير عواطف الرحمة فى قلوب الأوروبيين تجاه تسليمة نسرين لو كانت تحب دينها ، فى الوقت الذى نراهم يتنمّرون فيه لواحد من أبناء جلدتهم وحضارتهم كان ولا يزال ملء السمع والبصر فى كل أرجاء العالم ، وذلك دون ذنب اقترفه ؟

وبعد ، فهذه كلمة عاجلة أردت أن أبين بها ما أعتقد أنه الحق فى القضايا التى أثارها الأستاذ رجاء النقاش فى مقاله المذكور. أما الدراسة التفصيلية لهذه القضايا والمدعمة بالأدلة والشواهد القاطعة فموضوعها الفصول التالية .

على أننى لا أحب أن يفوتنى توجيه الشكر هنا رغم كل شيء للأستاذ عصام زكريا ، إذ إن الصورة التى حصلت عليها عن طريق بعض الأصدقاء للنص الإنجليزى لرواية « العار » إنما أُخِذَتْ من

نسخته التى تفضل بإعارتها لنا لهذا الغرض . وهؤلاء الأصدقاء هم الأستاذ صلاح محمد أبو النجا (الباحث بالمجالس القومية المتخصصة)، والأستاذ عامر سلطان (الصحفى بالأهرام) ، والأستاذ إبراهيم منصور (الصحفى بروز اليوسف) ، فلهم منى كل الشكر والاعتراف بالجميل . كذلك لا بد من التنويه بالجهد المشكور الذى بذله علاء الدين إبراهيم عوض فى مراجعة تجربة الطبع الأخيرة معى ، إذ نبهنى إلى كثير من الأخطاء المطبعية التى كانت قد فاتتنى .

د . إبراهيم عوض
(آداب عين شمس)

الفصل الأول

تسليمة نسرين وموقفها من الإسلام والمسلمين

وُلدت تسليمة نسرين عام ١٩٦٢م فى باكستان الشرقية ، التى صارت تسمّى بعد انفصالها عن باكستان الغربية بـ « بنجلاديش » . وكانت ولادتها فى مدينة ممنسنج القريبة من « دكّا » (التى أصبحت عاصمة هذه الدولة) لأسرة مسلمة [١] ليس فيها ، كما تقول هى نفسها ، أحدٌ متدين سوى الأم [٢] . وقد تخرجت تسليمة من كلية الطب واشتغلت طبيبة بعض الوقت، ثم تركت هذا المجال ونذرت نفسها تماما للكتابة ، التى كانت تمارسها منذ الخامسة عشرة من عمرها .

وتكتب تسليمة القصة والشعر والمقال الصحفى ، ولها عدة كتب . وكثير من كتاباتها يدور حول المرأة والجنس ، ويهاجم الجماعات الإسلامية وكذلك القرآن الكريم ، الذى ترى أنه لم يعد يواكب العصر ومن ثم يحتاج إلى المراجعة [٣] ، وأن القوانين المستمدة منه تصادم التقدم وحرية التعبير[٤] .

وقد تزوجت تسليمة نسرين وطُلِّقت ثلاث مرات رغم صغر سنّها .

---

(١) انظر ترجمة رواية « العار » لعصام زكريا / دار الخيّال / ١٩٩٦م / ١٦ (المقدمة) .

(٢) انظر الحوار الذى أجراه معها أنطون دو جودمار وترجمته حياة الشيمى / مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٩ .

(٣) انظر ترجمة رواية « العار » / ١٧ ، ١٩ (المقدمة) .

(٤) انظر الحوار الذى نشرته مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٩ .

وهى تهاجم الرجال دائمًا وتحذّر منهم ، وتقرن بينهم وبين الكلاب المسعورة ، وتتهمهم بأنهم مصابون بمرض الزهرى . تقول :

حياتى استولى عليها رجل شيطانى .

إنه يريد أن يملك جسدى

كلما شاء .

وتقول أيضا :

إذا طاردكِ كلب

حذارِ

هذا الكلب مصاب بالسعار .

واذا طاردكِ رجل

حذارِ

حذار

فهذا الرجل مصاب بالزهرى [١] .

وهو موقف يدل على أن صاحبته امرأة غير طبيعية .

وقد هبت المظاهرات فى بنجلاديش ضد تسليمة بسبب رواية « العار » وبعض كتاباتها الأخرى التى تهاجم فيها الإسلام وتشريعاته ،

(١) ترجمة رواية « العار » / ١٧ - ١٨ (المقدمة) .

على حين رحّبت الهند الهندوسية والدول الغربية بالكاتبة وكتاباتها ، واتخذ الهندوس فى الهند من الرواية حجة على أن المسلمين هم الذين يضطهدون الهندوس، وسعدوا بتصريحاتها المعادية للقرآن الكريم والشريعة الإسلامية ، اللذين لا يصلحان فى زعمها أن يكونا مصدراً تُستَمَدّ منه القوانين فى الدولة الحديثة [١] .

وقد قُدِّمت تسليمة بسبب آرائها هذه للمحاكمة فحُكِم عليها بسنتين، ثم أُلغى الحكم فى الاستئناف وأُفرج عنها مع ترك الحرية المطلقة لها لتذهب حيث شاءت ، فسافرت إلى السويد ، التى احتفت بها وبكتاباتها [٢] . كما تُرجمت روايتها التى نحن بصددها إلى عدة لغات آسيوية وأوروبية [٣] .

وقد صودرت رواية « العار » فى بنجلاديش ، كما صودرت ترجمتها فى مصر . ولستُ من أنصار مواجهة الفكر الخارج على الإسلام ، أو الذى ترى بعض الجهات أنه خارج عن الإسلام ، بهذا الأسلوب . وذلك لأكثر من سبب : فالإسلام ، أولا ، دين قوى

---

(١) انظر ترجمة رواية « العار » / ٧ ـ ٨ ، ١٩ (المقدمة) ، وحوار مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٣ .

(٢) انظر ترجمة الرواية / ٧ ـ ٨ (المقدمة) ، وحوار مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٣ .

(٣) حوار « إبداع » / ١١٣ ، وصحيفة « المسلمون » / الجمعة ٤ ربيع الأول ١٤١٧هـ ـ ١٩ يوليه ١٩٩٦م / ١ .

يستعصى على الهدم . إنه ليس بناء من زجاج هش ، بل هو جبل باذخ لا يقدر أحد أن ينال منه منالا . ولو كانت المصادرة والتعتيم هما الأسلوب الأمثل لما وجدنا القرآن يسجّل التهكمات والانتقادات التى كان المشركون واليهود والمنافقون يشنّعون بها عليه ، ولا الشتائم والتجديفات التى كانوا يوجهونها لرب العزة ولرسوله ، من مثل : «وإذ قالوا : اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ، « وقالوا : إنما يعلّمه بشر » ، « وقالوا : لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، « ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » ، « وقالت اليهود : يد الله مغلولة » ، « قد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » ، « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون : هو أُذُن » ، « يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ » . إن كتابات تسليمة نسرين وأمثالها هى لون من المواجهة الفكرية ، فهل الإسلام عاجز عن هذه المواجهة ؟ إن مثل هذه الإجراءات تتيح للمبطلين والمتقولين أن يدّعوا على الإسلام ما ليس فيه ويتهموه بأنه يخنق الفكر ويستعيض عن الحوار بتكميم الأفواه. ويظن حينئذ من لا يعرف ديننا العظيم أنه دين ضعيف واهن يستتر وراء المصادرات والعقوبات . إن الله سبحانه يقول : « من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، ويقول سبحانه أيضًا : « لا إكراه فى الدين . قد تبيّن الرشد من الغىّ » .

وثانيا ، فإن أسلوب المصادرة والمحاكمة لا يؤتى عادة بالثمرة المبتغاة، فكل شيء يمكن أن يتم بالقسر إلا فى مسائل الفكر والشعور . وبالله عليكم كيف يمكن الاطمئنان إلى إيمان رجل أُجبر على إعلان عودته عن كفره ، على حين أن أفكاره وآراءه ومشاعره وعواطفه العدائية نحو الإسلام لا تزال تعشش فى ذهنه وفى قلبه ؟ دعوا الناس تختار لنفسها ما تشاء ، فهكذا قال رب الناس . ولقد كان الله سبحانه وتعالى قادراً على أن يخلقهم جميعا مؤمنين ، ولكنه لم يفعل ، وأقام على العكس من ذلك كونه على اختلافهم فى الأديان والمذاهب والأفكار والمواقف ، بالضبط مثل اختلافهم فى السحنة واللغة واللون والعرق والعادات والتقاليد . فكيف نظن أننا نستطيع تبديل سنته جل شأنه ؟

وثالثا ، فمن شأن أسلوب العسف إثارة تعاطف قطاعات كبيرة من الناس مع من يصادَر كتابه أو يُقَدَّم للمحاكمة . ذلك أنهم يرونه حينذاك إنسانا مظلومًا معتدًى عليه فى حريته وأمنه . ومن جهته هو ، فإن التضييق عليه سيدفعه فى الغالب إلى العناد ، بل سيجعله ينظر إلى نفسه على أنه ضحية من ضحايا الاستبداد والقهر . وبكل تأكيد ليس هذا هو ما يريده الذين ينتهجون أسلوب المصادرة والمحاكمة .

ورابعا ، هل يقبل المؤمنون بالله سبحانه أن يعاملهم أعداؤهم حينما يكون السلطان فى أيديهم بنفس الطريقة ؟ ألن يقولوا حينئذ إن هذا

استبداد وطغيان وتدخل بين العبد وربه ؟ سيقولون هذا ، ولهم كل الحق فى أن يقولوه . فلماذا يكرهون ذلك لأنفسهم ويريدون أن يعاملوا به غيرهم؟ إن أحداً لا يجهل أن كثيرا من أعداء الإسلام المتربعين فى دسوت الحكم ينتهجون ، فى محاربة أتباعه الذين يريدون أن يتخذوا منه منهاجا لحياتهم ، أساليب غاية فى الشناعة والنكر من قتل واعتقال وتعذيب ... إلخ . لكن الإسلام أسمى من هذا وأعفّ وأطهر ، وأعطف على الخلق وأحرص على توفير الحرية والكرامة لهم . وإذا تمسك الغيورون على الإسلام بمبادئه العظيمة وقدّموه للناس بالصورة التى ينبغى أن يقدَّم بها كان ذلك أدعى إلى أن يحبّ الآخرون هذا الدين الجديد بكل حب وإعزاز . على أننا ندعو أيضًا من يضطهدون الإسلام والمتمسكين به إلى نبذ نهجهم الاستبدادى الغشوم . ينبغى أن ندع الزهور كلها تتفتح وألا يحاول كل فريق أن يعصف بالآخر ، فإن الدنيا تتسع للجميع ، والحياة أقصر من أن نضيعها فى صراعات لا تخدم الوطن بل تجلب له الخراب والتخلف وتحيل الدنيا إلى نكد وشقاء . وبالمناسبة ، فليست مصادرة الكتب مقصورة على الكتب التى تهاجم أو يُظَنّ أنها تهاجم الإسلام ، بل هناك كتب إسلامية كثيرة تعرضت وتتعرض للمصادرة كذلك ، وإن كانت المصادرة هنا أيضا لم تمنع الناس من الحصول عليها وقراءتها والتأثر بها .

ثم ها هو ذا مثلا كتاب الدكتور طه حسين « فى الشعر الجاهلى »

قد أُعيد طبعه مرتين هذه الأيام . كذلك أعيد طبع « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، و « من هنا نبدأ » لخالد محمد خالد ، و « أولاد حارتنا » لنجيب محفوظ ، رغم مصادرة السلطات هذه الكتب حين صدورها لأول مرة . فهل نتعظ من هذا ونعرف أن المصادرة لا تجدى ، وأنها إن نجحت فلبعض الوقت ليس إلا . فضلا عن أن هذه الكتب وأمثالها كانت تُتَداول فى السرّ أثناء سريان المصادرة تداولا واسعًا ويسعى الناس لاقتنائها بأغلى الأسعار . ذلك أن كل مطلوب مرغوب كما هو معروف للناس كافة . وللعلم ، فإن رواية تسليمة نسرين مازالت معروضة عند باعة الصحف ، وقد نبّه قرارُ الحظر الناسَ إليها وجعلهم يهتمون بها من جديد رغم مضى أربع سنوات على صدورها للمرة الأولى .

ومع ذلك فإن المؤلفة التى تصوَّر الآن على أنها شهيدة من شهداء حرية الضمير والوجدان والتى تُتَّخذ رمزا على التقدمية والاستنارة تدعو بكل قوة إلى قمع الجماعات الإسلامية فى كل مكان ، وتبدى ارتياحها وبهجتها للعسف والطغيان الذى تعاملت به حكومة الجزائر العسكرية مع جبهة الإنقاذ الإسلامية عقب نجاحها الساحق فى الانتخابات التى نظمتها هذه الحكومة نفسها [١] . فهل هذه هى

(١) انظر ص / ١٨٥ من الرواية .

التقدمية والاستنارة التى تصدّع هذه الكاتبة وأشياعها رؤوسنا بها ؟ أم إنه لا ينبغى أن يتمتع أحد بالحرية إلا هى ومن يرافئونها على أفكارها ومواقفها ؟ إنها تدعو إلى تحريم الأحزاب السياسية المؤسسة على أفكار دينية ، مع أن هذه ليست هى الديمقراطية كما نعرفها ، إذ إن الديمقراطية تعنى ترك الناس يختارون لحكمهم من يريدون ، سواء كانوا كفارا أو مؤمنين ، متمسكين بالدين أو ليسوا كذلك . أتُرَى لا يصلح للحكم إلا من يكره الإسلام ويريد تنحيته عن الحياة ؟ لا نكران أنه يوجد بين المتصدرين للصفوف فى الجماعات الإسلامية كثير من الذئاب والثعالب والأفاعى. لكن هذا لا ينبغى أبدا أن يكون مسوّغا لتحريم قيام أحزاب دينية ، بالضبط مثلما لا ينبغى تحريم قيام الأحزاب السياسية غير الدينية لأن كثيراً من رجالها دجاجلة أفاقون . فلنترك الناس تحكم بنفسها على البضاعة السياسية الموجودة فى سوق الأحزاب، ولسوف يخطئ الناس الاختيار كثيرا قبل أن يتعلموا كيف يحسنون تقويم الأشخاص والأحزاب والجماعات . وهذه هى سنة الحياة ، إذ لم نسمع بأمةٍ استطاعت أن تكتسب الوعى السياسى طفرة واحدة ، بل لا بد من دخولها ميدان التجربة ، وهذا يتطلب وقتا . أما الدعوة إلى الاستبداد بحجة حماية الحرية فذلك خداع حقير لا يلجأ إليه إلا الكارهون للحرية ، وإن تشدقوا بها أمام الناس مكرا منهم وخبثا .

وتَدّعى تسليمة نسرين أنها كتبت روايتها دفاعًا عن هندوس بنجلاديش، الذين تبالغ أَمْقَتَ المبالغة فى الحديث عن عدوان المسلمين عليهم ، إذ تقول إن الآلاف المؤلفة من منازلهم ومعابدهم ومحلاتهم قد أُحرقت أو هُدمت ، بل إن قُرًى لهم بكاملها قد محيت من على وجه الأرض محوا . كما أنها تصور المسلمين وحوشا كاسرة لا يُشْبِع نهمتَها أو يطفىء غُلّتَها إلا اغتصابُ النسوة والبنات الهندوسيات . أهذا معقول ؟ أيمكن أن ينسى المسلمون بهذه البساطة تقاليد الحياء والعفة التى مازالت رغم كل شىء سائدة بينهم فلا يصبح لهم من همّ إلا اختطاف نساء الهندوس من الشوارع ومن البيوت والعدوان عليهن بتلك الوقاحة التى تزعمها الرواية ؟ ثم إن المسلمين الآن أضعف وأهون وأذل من أن يُقْدموا على هذا العدوان . إن هذا العدوان يلائم الصهاينة والهندوس والصرب وسائر الأوروبيين ، ولكنه لا يتفق مع التركيبة النفسية للمسلمين ، الذين يصدق عليهم بوجه عام فى العصر الحديث عنوان رواية ديستويفكسى « المستذلون المهانون » . إن المسلمين يُصْفَعون على أقفائهم ويُرْكَلون فى أدبارهم فى كل مكان ، بل يُقْتَلون وتُغْتَصَب نساؤهم وتُشَقّ بطون الحوامل منهن حيثما تكون مواجهة بينهم وبين أحد من أعدائهم ، فلا يردون الإهانة بمثلها . فكيف نصدق ادعاءات تسليمة نسرين ضد المسلمين فى بنجلاديش ؟ ثم إذا كانت تتحلى حقا بهذه الرحمة التى تظهرها فى كتابتها للهندوس فلماذا لم تُبْدِها

نحو مسلمي الهند ، الذين يتعرضون لأبشع عمليات التنكيل والبطش والإرهاب والتقتيل على أيدى عبّاد البقر الوثنيين ؟ ولماذا لم يثُرْ ضميرها المرهف لمآسي المسلمين فى البوسنة والهرسك وفلسطين وبورما وتايلاند والفلبين والصين مثلا ؟ أم إن شفقتها وقف على الهندوس وحدهم ؟ إن هذه الكاتبة الساذجة تظن أن الناس ستنطلى عليهم الخدعة السخيفة التى أقامت عليها روايتها ، وهى أن المسلمين ليسوا سوى مخلوقات متوحشة لا قلب لها ولا أخلاق ، بخلاف الهندوس ، الذين تُبرِزهم فى صورة ملائكة لا تعرف الشرّ بل لا تستطيع أن تدفع الشر عن نفسها (١) . إن هذه بلاهة فكرية وفنية ، والعياذ بالله ! فكيف يقال إن الرواية لا تسيء للإسلام والمسلمين ؟ لقد اتخذ بعض السياسيين الهندوس فى الهند من الرواية حجة على أن العدوان إنما يقع من المسلمين على الهندوس فى بنجلاديش لا على المسلمين من الهندوس فى الهند . كما أثلج صدورهم ما قالته الكاتبة فى حقّ القرآن الكريم ، إذ اتهمته بالتخلف عن مواكبة العصر وادعت أن القوانين المستمدة منه وبال على الدولة الحديثة . ومع ذلك يقول بعض من يدافعون عن الكاتبة وروايتها إنها تفهم الإسلام أحسن مما يفهمه منتقدوها ، وإنها

---

(١) وقد دفع هذا التحيز الفِجّ إحدى الصحفيات بجريدة « الدستور » إلى كتابة مقال غاضب تفضح فيه كراهية تسليمة نسرين للإسلام ، تحت عنوان « المسلمون أشرار ، والملحدون أبرار . اشمعنى يعنى ؟ » (الدستور / الأربعاء ٣ يوليه ١٩٩٦م / ١٠) .

تنطلق فى آرائها ومواقفها من مبادئه العظيمة [١] . ترى كيف يكون هجوم شخص ما على الإسلام واتهامه للقرآن بالتخلف عن مسايرة ركب العصر واستماتته فى محاربة شريعته دليلا على قوة حبه للإسلام وعمق فهمه له وشدة وفائه لمبادئه ؟ إن هذه معادلة مستحيلة .

وأحسب أن من بين الأهداف التى كانت وراء تأليف هذه الرواية الرغبة فى تحويل الأنظار بقدر الطاقة عما كان يجرى آنذاك فى البوسنة والهرسك . لقد كشفت الحضارة الغربية هناك عن سوأتها القبيحة المنتنة المدوّدة فأراد « الوحوش الشقر » (وهو الاسم الذى كان يطلقه أجدادنا على الأوروبيين) أن يرموا المسلمين بدائهم وينسلّوا ، فكانت هذه الرواية ، التى تفترى الكذب والباطل على مسلمى بنجلاديش . إننا لا ننكر أنه كان هناك ردّ فعل ضد عدوان الهندوس على المسلمين فى الهند ، ذلك العدوان الذى تجاوز كل حدّ والذى كان يتم تحت سمع الحكومة وبصرها ، وبمباركتها أيضا . ولقد فاض بالمسلمين الكيل فلم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم وهم يرون إجرام عبّاد البقر لا يتوقف ولا يرعوى ولا يخجل . صحيح أن الإسلام يكره إيذاء أهل الذمة وينحاز إلى صفوفهم ماداموا لم يرتكبوا ما يسوّغ هذا الإيذاء . لكن الإسلام

---

(١) انظر مقال رجاء النقاش فى « أهرام » الاثنين ٢٤ يونيه ١٩٩٦م بعنوان « الغاضبة » / ص ٢٠ .

يكره أيضا أن يصبح المسلمون « مَلْطَشَة » لكل من هب ودبّ . فإذا قام المسلمون فى بنجلاديش وردّوا على جرائم الهندوس ضد إخوانهم فى الهند ، فبأى حقّ ندينهم فى الوقت الذى نغض فيه الطرف عن بواعث هذا الغضب وأسبابه ؟ وبأى منطق تهوّل المؤلفة فى وصف ما صنعوه وتتكتم ما اقترفه أولئك الذين دفعوهم بوقاحتهم وإجرامهم إلى ذلك الغضب ؟

لقد أحسن الأستاذ رجاء النقاش فى تجليته لموقف الإسلام من الأقليات التى تعيش تحت جناحه ، إذ قال : « ليس فى الإسلام قسوة ولا عنف ولا تطرف ، بل فيه شجاعة وشهامة ونفوس كبيرة واحترام واهتمام بكل خلق الله ، خاصة لو كانوا ضعفاء ومحتاجين إلى العون والمساندة . الرسول الكريم ﷺ يقول ما معناه : « ما دخل الرفق فى شيء إلا كان زينة له وفضيلة فيه » . وعندما دخل عمرو بن العاص مصر فاتحا لها سنة ٦٤٠ ميلادية بعد انتصاره على الرومان ، الذين كانوا يضطهدون أهلها أشد الاضطهاد ، استدعى عمرو بطريرك الأقباط الأكبر الأنبا بنيامين من صومعته التى كان هاربا إليها فى الصحراء من بطش الرومان وتحدث معه وناقشه ، ثم أعطاه وثيقة بأمان له ولسائر الأقباط وقال له : « عُدْ إلى كنيستك وباشر أمور دينك وأنت آمن حرٌّ » . ويذكر المؤرخون بعد ذلك أن عمرو بن العاص قال أمام الجميع

إنه لم ير فى حياته رجلا من رجال الدين المسيحى أطهر وأتقى وأخلص قلبا وأشد مهابة من البطريرك بنيامين [١] . والتاريخ الإسلامى ملىء بهذه النماذج الرائعة فى التسامح الدينى العظيم . ومن ذلك ما هو معروف عن العرب فى الأندلس من حمايتهم لليهود واحترامهم لهم حتى ظهر بينهم مفكرون وعلماء بارزون مثل موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤م) [٢] . وكان الأخطل الشاعر العربى المسيحى هو شاعر الدولة الأموية ، وكان شديد القرب من ملوك هذه الدولة ، يحظى منهم بالرعاية الكاملة والاحترام الكبير . بل لقد كان مدللا ، وكان موضعه من ملوك بنى أمية سابقا ومتقدما على غيره من الشعراء المسلمين [٣] . وكان طبيب هارون الرشيد مسيحيا . وعندما سُئل الرشيد فى ذلك قال ما معناه : إن سلامة قيادة الدولة فيها سلامة للدولة ولأمور

---

(١) كنا نحب أن يذكر الأستاذ النقاش هؤلاء المؤرخين والمواضع التى ورد فيها هذا الكلام من كتبهم ، مع إيراد نصّه بالضبط .

(٢) وحتى كان منهم أيضا وزراء أذلوا المسلمين وخانوا الأمانة التى وُكلت إليهم حتى ضاق صدر الرعية بهم واشتكوهم إلى من استوزروهم فلم يُشْكوهم . وعندئذ فاض مرجل غضبهم فثاروا وتولوا بأنفسهم وضع الأمور فى نصابها وقتلوا الوزير الخائن الذى كان قد قتل ابن من استوزره . وذلك الوزير الخائن هو ابن النغرالة ، الذى تولى الوزارة للملك حبوس بن زيرى وابنه باديس فى الأندلس (فى القرن السابع الهجرى) .

(٣) ذلك أنه كان يقوم لهم بالمهمات القذرة التى كان يتورع عنها المسلمون المتحرجون ، مثل سب أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المسلمين . وهذا الطبيب المسيحى هو الذى يرعانى ويضمن سلامتى ، فهو يخدم الدولة الإسلامية رغم أنه مسيحى .

كل من يفرض على الإسلام والمسلمين شيئا من التطرف وعدم التسامح فهو بعيد كل البعد عن مبادئ الإسلام الصحيحة ، فلا الإسلام يقبل التطرف والعنف ، ولا المسلمون الحقيقيون يقبلون ذلك أو يرضونه لدينهم ولأنفسهم ، إلا إذا كان الأمر حربا صريحة ضد عدوّ لهم يحمل السلاح فى وجههم ويستبيح دماءهم ويحاول إلحاق الأذى بهم . وما نجح الإسلام فى الانتشار السريع إلا بتسامحه ومراعاته للمبادئ الإنسانية الرفيعة .

هذا هو الإسلام فى حقيقته : سماحة ونبل ومساعدة للناس جميعا حتى لو كانوا غير مسلمين ما داموا يعيشون فى سلام داخل البلاد التى يحكمها المسلمون ويمثلون الأغلبية فيها » [١] .

والحق أن الإسلام هو هذا وأكثر من هذا . ونستطيع أن نورد نصوصًا أخرى كثيرة توضح عظمة هذا الدين وعبقريته فى مجال التعامل مع الأقليات التى تحيا فى كنفه وتخضع لسلطانه . من ذلك قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين

---

(١) من مقال « الغاضبة » فى « أهرام » الاثنين ٢٤ يونيه ١٩٩٦م / ص ٢٠ .

ظلموا منهم ، وقولوا : آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبَرّوهم وتُقْسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين » ، « يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يَجْرِمَنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون » ، « اليوم أُحلّ لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلّ لكم ، وطعامكم حِلّ لهم ، والمحصَناتُ من المؤمنات والمحصَنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » ، «فاعفُ عنهم واصفح . إن الله يحب المحسنين » . ويقول الرسول ﷺ : «من ظَلَم معاهَداً أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طِيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » . وكان الرسول ﷺ جالسا ذات يوم فى المدينة عندما مرت به جنازة يهودى فقام فسأله الصحابة فى ذلك مستغربين ، فكان رده عليهم : « أليست نَفْسا ؟ » . وحينما قدم وفد الحبشة على المدينة تركهم عليه الصلاة والسلام يمارسون زَفْنهم فى المسجد ... وهكذا . لكن ليس معنى هذا أن يَذِلّ المسلمون للأقليات فى بلادهم فيسكتوا عن خيانة الخائنين منهم أو يخضعوا لتحكماتهم التى يبدونها فى بعض الفترات التاريخية عندما يشيمون من

الحكومات الإسلامية التى يعيشون فى كنفها ضعفا ، إذ معنى هذا أن تتحكم الأقلية فى الأغلبية ، وهو ما يناقض أصول الديمقراطية مناقضة تامة .

ومن الناحية الأخرى لا بد أن تعامَل الأقليات المسلمة فى الدول المختلفة بنفس التسامح الذى يبديه المسلمون نحو الأقليات الدينية وغير الدينية فى بلادهم . أما انتقاد المسلمين على الهفوات التى تقع من بعضهم مخالفةً لسياسة الدولة العامة نحو الأقليات وتضخيمها لإثارة الفتن ، والخَرَس فى ذات الوقت تجاه التنكيل والاضطهاد الفاحش اللذين تتعرض لهما الأقليات الإسلامية فى كثير من الدول فهو موقف لا إنسانى ينبغى أن نعرّيه ونفضحه دون تهيب أو وَجَل. إن الإسلام عزة وكرامة . وإذا كان المسلمون مطالَبين بالحفاظ على كرامة الأقليات فى بلادهم ، فكيف يُقْبَل أن يفرّطوا هم أو يُجْبَروا على التفريط فى عزتهم وكرامتهم ؟

وسوف أضرب هنا بعض الأمثلة على الطريقة التى يعامَل بها المسلمون فى بريطانيا أم الديمقراطية : إنهم مثلا لا يستطيعون أن يؤذّنوا للصلوات جهرة ولا حتى لصلاة الجمعة الأسبوعية ، إذ لا يجوز أن يتجاوز الأذان جدران المسجد ، على حين تضرب الكنائس نواقيسها للصلوات فى أى وقت ولأى مدى زمنى . كذلك فالقانون البريطانى

لا يسكت على المسلم الذى يتزوج بأكثر من واحدة . أى أنه حتى فى نطاق الأحوال الشخصية فإن المسلم فى بريطانيا لا يتمتع بالحقوق التى تكفلها له تشريعات دينه . كما أن الدولة هناك ، فى حدود علمى ، لا تسوّى بين المسلمين والنصارى فى حق الحصول على إجازة فى الأعياد الدينية . فيا ليت الأقليات المسلمة تنعم بنصف ما ينعم به غير المسلمين فى البلاد الإسلامية بوجه عام ، ويا ليت الأقليات الإسلامية تجد من أبناء البلاد التى يعيشون فيها من يدافع عنهم بالحقّ مثلما يتطوع بعض أبناء المسلمين فى البلاد الإسلامية للدفاع عن غير المسلمين بالحق أحيانا وبالباطل فى كثير من الأحيان !

هذا ، وقد تكررت فى رواية تسليمة نسرين الإشارة إلى استقلال بنجلاديش عن باكستان . والذين لا يعرفون الأمور سوف يظنون أن باكستان هى ، مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا وإيطاليا والبرتغال واليابان ، دولة استعمارية ، وأنها كانت تحتل بانجلاديش . وهذا خطأ بواح ، فليست باكستان دولة استعمارية ، وهى لم تحتل بنجلاديش فى يوم من الأيام ، بل كانت الدولتان عبارة عن دولة واحدة هى دولة باكستان ، وكانت بنجلاديش تسمى « باكستان الشرقية » ، أما باكستان الحالية فكانت تسمى « باكستان الغربية » . وقد ظهرت هذه الدولة إلى الوجود سنة ١٩٤٧ م حينما قُسّمت شبه القارة الهندية إلى دولتين : دولة

هندوسية فى أساسها هى دولة الهند ، ودولة مسلمة فى أغلبها هى دولة باكستان . والسبب فى هذا التقسيم هو الصعوبة التى كان المسلمون يجدونها فى التعايش مع عبّاد البقر الهندوس فى دولة واحدة ، وذلك بسبب ضيق العطن والتعصب الوحشى عند أولئك الوثنيين، الذين كانوا يصطدمون دائما بالمسلمين من جرّاء أكلهم لحم البقرة ، التى يعبدونها هم . وعندئذ اضطر المسلمون اضطراراً إلى المطالبة بالانفصال ، الذى انطلقت الدعوة إليه أول ما انطلقت من بلاد البنغال (بنجلاديش حاليا) .

والذى ينظر إلى خريطة شبه القارة الهندية سوف يلاحظ أن الباكستانيّن كانتا قسمين متباعدين ، فباكستان الشرقية تقع فى شمال شرق الهند ، والغربية تقع فى شمالها الغربى ، وتفصل بينهما مسافات شاسعة . وكان هذا أحد العوامل المضادة للوحدة بين القسمين . وثمة عامل آخر يتمثل فى أن باكستان الشرقية لم تكن تحظى من الحكومة المركزية ، التى كان مقرها فى القسم الغربى ، بنفس الاهتمام الذى كان يناله ذلك القسم ، مما أوغر الصدور وخلق الحزازات . وهذا الخطأ هو مسؤولية باكستان الغربية ، التى كان ينبغى أن تعيد ترتيب الأمور وتُقَسّم الدخل والخدمات على أساسٍ عادل حفظا لوحدة البلاد واحتراماً لمبدإ المساواة ، الذى هو مبدأ إسلامى أصيل . وينضاف إلى هذين

العاملين عامل آخر ، وهو مطالبة باكستان الشرقية بأن تكون البنغالية هى لغتهم القومية . والحقُّ أن وحدة اللغة هى أحد العوامل المهمة فى حفظ وحدة البلاد ، وكان ينبغى على البنغاليين فى القسم الشرقى من باكستان ألا ينساقوا فى هذا الاتجاه الخطر . لكنهم للأسف تمادوا فى هذا السبيل المعمّق لأسباب الفرقة والاختلاف . وكانت الهند تراقب هذا كله، وتشجّع زعماء المعارضة في باكستان الشرقية على تحدّى الحكومة المركزية ، وتنفخ فى النار حتى تزداد لهيبا وضراما . وهذا هو العامل الرابع .

وقد ساندت الهند زعيم المعارضة البنغالية الشيخ مجيب الرحمن ، وغزت جيوشها باكستان الشرقية حيث اشتبكت مع الجيش الباكستانى فى حرب ضروس هُزِم فيها الجانب الإسلامى هزيمة مهينة . وكان ذلك فى عام ١٩٧١م. وعندما تطورت الأمور وأخذت تنذر بوخيم العاقبة عرض ذو الفقار على بوتو ، الذى كان حينها رئيسًا لدولة باكستان ، على زعيم المعارضة البنغالية الشيخ مجيب الرحمن أن يتنازل له عن رئاسه الدولة لقاء عدم انفصال باكستان الشرقية . بيّدَ أن مجيب الرحمن ركب رأسه وأصر على الانفصال . ومن يومها لم تستقر أحوال باكستان الشرقية ، ولم تستطيع أن تحل أيّا من مشكلاتها التى كانت

تظن أنها ستختفى بمجرد انفصالها عن الدولة الأم . وهذه هى حقيقة الأمر باختصار (١) .

كذلك فإن الرواية تهاجم الجماعة الإسلامية فى بنجلاديش متهمة إياها بأنها كانت ضد الاستقلال . تقصد ضد الانفصال . والواقع أن هذا الذى تعيبه المؤلفة على الجماعة الإسلامية إنما هو مبعث فخار لها ، لأن معنى ذلك أن هذه الجماعة كانت حريصة على وحدة البلاد . ونحن قد جرّبنا الوحدة مع سورية ، وذقنا مرارة الانفصال ، إذ كنا نريد أن تكون هذه الوحدة الصغيرة بداية لوحدة الشعوب العربية جميعا . ومن هنا نفهم ونقدر موقف الجماعة الإسلامية ، الذى تعيبه المؤلفة الحاقدة . والحق أنه لا يضيق بالوحدة إلا الخونة أو الأغبياء الذين

---

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الجزء الأخير على التقارير والدراسات التالية ، وكلها منشورة فى مجلة « السياسة الدولية » القاهرية :

١ ـ « الأزمة السياسية فى باكستان » للدكتور إسماعيل صبرى مقلد (إبريل ١٩٧١م / ٢٢ ـ ٤١) .

٢ ـ « انعكاسات الحرب الأهلية فى باكستان » لعبد المنعم المشّاط (أكتوبر ١٩٧١م/ ١٤٨ ـ ١٥٦) .

٣ ـ « البنجلاديش والصراع الهندى الباكستانى » لنبيّة الأصفهانى (يناير ١٩٧٢م / ١٣٥ ـ ١٣٧) .

٤ ـ « اتفاقية سيملا والمصالحة الهندية الباكستانية » لنازلى معوض أحمد (أكتوبر ، ١٩٧٢م / ١٤٩ ـ ١٦١) .

٥ ـ « الانعكاسات الدولية لانقلاب بنجلاديش » لمصطفى علوى (أكتوبر ١٩٧٥م / ١١٦ ـ ١١٨) .

لا يرون أبعد من آنافهم ، فالوحدة قوة ، والتفرق ضعف . ونحن الآن نستغرب أشد الاستغراب أن يطالب مثلا أهل الصحراء المغربية بالانفصال عن المغرب ، وتؤلمنا أعظم الألم مؤامرت الصليبية العالمية لفصل جنوب السودان عن شماله ، ونرقب بفزع ألاعيب الدول الغربية التى تهدف إلى تفتيت العراق ، فكيف يمكن أن نفرح بتفتت باكستان إلى دولتين ونعيب الجماعة الإسلامية التى كانت تعمل على بقائها دولة واحدة ذات بنيان مرصوص ؟

كذلك فإن تسليمة نسرين تحاول أن تخدع القارئ بادعائها أن طائفة الهندوس فى بنجلاديش هى طائفة فقيرة مستضعفة يأكل المسلمون حقوقها ويعتدون عليها دون وازع من ضمير فلا تستطيع أن ترد عن نفسها العدوان. ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أن غالبية الإقطاعيين فى بنجلاديش كانوا من الهندوس ، هؤلاء الذين تتباكى عليهم الكاتبة اليسارية ، مع أنها لو كانت مخلصة لمبادئها السياسية لوجهت إليهم سهام انتقاداتها وكراهيتها . لكن بغضها للإسلام والمسلمين قد غطّى على عينيها وعقلها وضميرها ومشاعرها وجعلها ترى الأمور مقلوبة رأسا على عقب .

وأخيرا ، فلماذا تكره تسليمة نسرين أن توصف دولة بنجلاديش بـ « الإسلامية » وأن يوضع اسم الله فى أول الدستور البنجلاديشى ؟ هل تقدُّم المسلمين مرهون بحذف البسملة من دساتيرهم وإزالة كلمة

« الإسلامية » من أسماء دُوَلهم ؟ أرأيتم إلى هذا السخف ؟ أهذه هى الكاتبة التى تصوَّر على أنها شهيدة من شهداء حرية الفكر ؟ وهل يصح أن يقال إنها تنطلق فى مواقفها من مبادئ الإسلام وإنها تفهمه أفضل ممن يخالفونها فى الرأى ؟

الفصل الثانى

البناء الفنى للرواية

تدور أحداث الرواية على وصف وقائع الاضطرابات الطائفية فى بنجلاديش عقب قيام الهندوس المتعصبين فى عام ١٩٩٢م فى الهند بهدم المسجد البابرى بمؤازرة من المسؤولين هناك ومباركة من قوات الشرطة ، التى كانت واقفة تراقب ما يحدث من غير أن تكلف نفسها ولو مجرد التظاهر بأنها حاولت أن تفعل شيئًا تحول به دون وقوع تلك الجريمة الوحشية التى اقترفها أولئك الوثنيون من عُبّاد البقرة الذين لا يكفون عن الاحتكاك بالمسلمين وإنزال أفظع ضروب الإيذاء بهم بغية القضاء عليهم أو على الأقل لترويعهم كى يتركوا الهند خالصة لهم يقدسون فيها البقر كما يشاؤون دون أن يزعجهم نداء التوحيد .

وتقع الرواية فى ثلاثة عشر فصلا يتحدث كل فصل منها عن أحداث يوم من ثلاثة عشر يوماً هى المدة الفاصلة بين بداية الاضطرابات وتقرير أسرة سودهاموى الهندوسية (التى تمثل محور الرواية) الرحيل عن البلاد إلى الهند ، حيث يشكل الهندوس الأغلبية الساحقة .

وتتكون أسرة سودهاموى منه ومن زوجته كيرونموىى وابنه سورنچان وابنته مايا . فأما سودهاموى فكان يشتغل طبيبا ، وكان موفقا فى البداية ، ولكن الأمور لم تظل مواتية كما كانت . ثم سقط مريضًا بالسكتة الدماغية أثناء الاضطرابات ، وإن كانت حالته قد تحسنت بالعلاج والتدريب بعض الشىء قبل أن يعتزموا الرحيل عن البلاد . وهو

رجل علمانى يرفض المعتقدات والعبادات الهندوسية . وأما الزوجة فربة بيت هادئة طيبة مخلصة لزوجها ، الذى كان قد كفّ عن ممارسة واجب الفراش معها ، ومُحِبّة لأسرتها متفانية فى خدمة أفرادها ومرضاتهم، فى الوقت الذى لا تكاد ترى لنفسها حقا على أحد منهم . وكانت مايا تشتغل بالتدريس وإعطاء الدروس الخصوصية ، لكن هذا الباب قد سُدّ فى نهاية المطاف . ويبقى سورنچان ، الذى كان عاطلا عن العمل والذى كان يبرر عدم محاولته البحث عن وظيفة يرتزق منها ويخفف العبء بها عن أسرته بأن الوظائف فى بنجلاديش حكر على الشبان المسلمين بحيث يستحيل أن يفوز هو أو أى هندوسى بواحدة منها رغم تفوقهم الكبير عليهم . وهو شاب يسارى ماركسى يجاهر بأفكاره الإلحادية ويرى تنحية الدين عن الحياة تمامًا وتحويل المساجد وغيرها من المؤسسات الدينية إلى مدارس ومستشفيات وملاجئ ومعاهد فنية ، ويبدى ضيقه الشديد من عدم حذف « بسم الله » من ديباجة الدستور البنجلاديشى ، ومن النص فيه على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، وتغطية الشيخة حسينة زعيمة رابطة عوامى شعرها بعد عودتها من تأدية فريضة الحج ، واهتمامها بمسلمى الهند وما يتعرضون له من تضييق وتنكيل على أيدى الهنادكة المتهوسين .

وترتبط أسرة سورنچان بوشائج طيبة مع عدد من الأسر المسلمة ، التى كانت تقوم بحمايتهم كلما حدثت اضطرابات طائفية فى البلاد .

ومع هذا فقد كان سورنچان يضمر فى أعماقه الريبة فى هؤلاء الأصدقاء المسلمين والسخط عليهم ، ولا يتورع عن أن يصف المسلمين فى بنجلاديش عموماً بالأميين (١) والخنازير (٢) .

وتتابع الرواية أحداث الاضطرابات الطائفية فى بنجلاديش ، ودكّا على وجه الخصوص ، مع التركيز على أسرة سورنچان ، التى لا يحدث لها شىء على الإطلاق سوى أن مايا خُطِفتْ فى سادس يوم من الأيام الثلاثة عشر . واللافت للنظر أننا لا نعلم بشىء من تلك الأحداث إلا عن طريق المناقشات التى كانت تدور بين سورنچان أو أبيه وأصدقائهما، وكذلك التقارير والإحصاءات الصحفية . أى أننا لا نرى بأعيننا ما تدعى الرواية وقوعه من حوادث عنف وقهر واضطهاد وسلب ونهب على هندوس بنجلاديش من جانب المسلمين بل نسمع بها مجرد سماع ، رغم أنها تُعَدّ بالمئات بل بالآلاف كما جاء فى الرواية مرارا . وهذا هو السبب فى أن الرواية تفتقد الحرارة اللازمة لكسب تعاطف القارئ . وقد كانت الرواية ، كما ذكر الأستاذ المترجم فى مقدمته لها، تخلو فى طبعتها الأولى من هذه الإحصاءات وكذلك من النصوص

(١) « illiterates » . وقد ترجمها عصام زكريا بـ « الجهلة » (ص ١٢٤ _ Taslima Nasrin , Lajja , Penguin Books , P. 104) .

(٢) « swine » . وقد ترجمها عصام زكريا إلى « الحقارة » كما أشرنا فى موضعه من الفصل التالى .

التى تدعى الكاتبة أنها نقلتها عن الكتب والصحف ومواد الدستور البنجلاديشى ... إلخ ، حتى إنها لم تكن تتجاوز فى الأصل سبعين صفحة . وهذا يعنى أن الرواية فى حد ذاتها عاجزة عن إقناع القارئ بصدق ما تريد الكاتبة أن تدخله فى روع القراء ، إذ إن أفراد أسرة سورنچان ، وهم يملأون ساحة الرواية كلها تقريبا ، كانوا يعيشون فى أمان تام فى عزّ المظاهرات والاضطرابات والاضطهادات الموجهة ضد الهندوس كما تقول الرواية ، وإن جاءت الكاتبة عند هدوء هذه الاضطرابات فجعلت بعض الشبان المسلمين يقتحمون بيت سورنچان فى غيابه ويخطفون أخته ويفرون بها دون أن يستطيع الوالدان أن يدفعا عنها شيئا . وهو حدث مُقْحَم إقحامًا ، فقد تكرر خروج مايا فى معمعان القلاقل دون أن يقع لها أى شىء . كما كان معروفا أن أسرتها هندوسية ، فما الذى منع المسلمين طوال هذا الوقت من أن يخطفوها ؟ كذلك فإن سورنچان كان يخرج كل يوم دون أية مبالاة رغم تفجر الجوّ من حوله ، ويظل يدور فى أرجاء المدينة هنا وهناك إلى وقت متأخر من الليل دون أن يصيبه أذى . وكان يناقش أصدقاءه الهندوس فى الشارع فى أحوال طائفتهم وينتقد الأوضاع فى بنجلاديش دون خوف . وكثيرا ما جلس فى شرفة الدار فى اطمئنان وحرية كاملين ، مع أن الرواية تقول إن الهندوس كانوا يتحاشون بكل استطاعتهم الظهور أمام الجماهير المسلمة الهائجة .

وهنا لا بد من أن نتساءل : متى وأين أضافت الكاتبة إلى روايتها الصفحات التى جعلتها تزيد عن حجمها الأصلى مرتين ؟ هل تمّ ذلك فى الغرب عندما رُؤى أن تُتَرْجَم إلى بعض اللغات الأوروبية كما أتصور؟ إن أهمية هذا السؤال تكمن فى أن الطبعة الأولى تخلو ، فى ظنى، من الأرقام الهائلة الخاصة بالمنازل التى دُمّرت والمعابد التى أُحْرقت والرجال والأولاد الذين ضُربوا أو قُتلوا والنساء والفتيات اللائى تعرضن للاغتصاب . فلو صحّ ، كما يغلب على تصورى ، أن المؤلفة قد قامت بإضافة الصفحات المذكورة بعد أن تركت بنجلاديش فمعنى ذلك أنها حين كانت لا تزال فى بلدها وبين مواطنيها لم تذكر هذه الإحصاءات المخيفة ، وعندما ذهبت إلى أوروبا أدخلتها فى روايتها . فلماذا ؟ هل لأنها تعرف أنها لو كانت ذكرتها فى الطبعة الأولى التى صدرت فى بنجلاديش لاستطاع الناس تكذيبها فى وجهها ، أما فى الخارج حيث الجوّ المعادى للإسلام والمسلمين فإن أحداً لن يفكر فى مراجعتها فيما تقول ؟ هذا مجرد سؤال أتركه لمن يستطيع الإجابة عليه عن طريق المقارنة بين النص البنغالى للرواية وترجمتها الإنجليزية مثلا .

إن الأستاذ رجاء النقاش يمدح رواية « العار » بحرارة فائقة ويدافع عن كثرة ما فيها من وثائق ونقولٍ من الصحف والكتب بأن هذه هى سمة « الرواية التسجيلية » ، قائلا : « إن هذا النوع من الروايات الوثائقية أصبح ضرورة فنية كبرى فى حياتنا المعاصرة ، فالقضايا التى

تمس الإنسان وتهدد حياته وأمنه وسعادته أصبحت كثيرة ومعقدة ، والفنان صاحب الضمير لا يجد مفرا من أن يتحول إلى « مقاتل » بفنه وقلمه ضد كل ما يصيب الإنسان بالمهانة والمجاعة والخطر . والواقع اليومى فى هذا المجال أصبح أقوى من أى خيال . ولذلك فالفنانون الغاضبون من أجل الإنسانية يرفعون راية هذا الواقع قبل أن يعتمدوا على خيالهم ، وهم يستخدمون مواهبهم فى تشكيل المادة الواقعية داخل أعمالهم الفنية ليوقظوا الضمائر ويوجهوا أصحاب الأفكار المدمرة التى تريد أن تغطى المصالح الخاصة بعباءة الدين أو بأى عباءة أخرى لأى فكرة سامية »[١] . ولا اعتراض لنا على ما قاله الأستاذ النقاش عن « الرواية التسجيلية » أو « الوثائقية » . فلتكن الرواية ما تكون . المهم ألا تستحيل هيكلا عظميا هامدا ، بل لا بد أن تكون جسماً حيّا مملوءا حركة وحيوية وجاذبية . وهو ما لم يتحقق للأسف لرواية تسليمة نسرين، التى تقول المناقشات والإحصاءات والنصوص المقحمة فيها شيئاً، وتقول أحداثها التى تقع تحت أعيننا وشخصياتها التى تتحرك أمامنا شيئا آخر .

وفوق ذلك فإن الرواية تعانى من كثير من الأشياء غير الواقعية . فعلى سبيل المثال تحاول المؤلفة أن توهمنا أن سورنچان لم يكن يعرف ، وهو تلميذ بمدرسة القرية التى وُلد فيها ، معنى كلمة « هندوسى » ،

---

(١) من مقال « الغاضبة » بالصفحة العشرين من صحيفة « الأهرام » / ٢٤ يونيه ١٩٩٦م .

متصورا أنها مجرد سباب ، مثل كلمة « كلب » أو « خنزير »[١] .

فهل يمكن أن يدخل فى عقل أحد أن تلميذا يجهل اسم ديانته والطائفة التى ينتمى إليها ؟ إن هذا هو المستحيل بعينه ، وبخاصة إذا كان هذا الطفل ينتمى إلى أقلية دينية حيث تبلغ الحساسية فى هذه المسألة مدى جدّ بعيد .

كذلك فإن حوادث اغتصاب البنات الهندوسيات على يد المسلمين تبدو عسيرة على الفهم والإقناع ، إذ لم يُعْرَف عن المسلمين فى أى مجتمع يشكلون فيه الأغلبية هذا الأمر الذى اشتهر به الأوروبيون والصهاينة والوثنيون فى مجاهل إفريقية ، والذى تدّعى المؤلفة فى روايتها أنه يشكّل ظاهرة بارزة فى بنجلاديش ، وبالذات أيام الأزمات الطائفية . إن تقاليد المسلمين تمنع من هذا منعًا شديداً . وإذا أُضيف إلى ذلك أنهم فى العصر الحديث يجسّدون بوجه عام الضعف والهوان كان من الصعب الشديد الصعوبة أن نصدق هذا الذى تقوله الرواية فى ذلك الموضوع . وقد سألت صديقا لى اشتغل فترة طويلة فى الهند وباكستان عن ذلك الأمر فأكد لى ما قلته هنا تمامًا . إن محاولة تلطيخ سمعة المسلمين من هذه الناحية هى محاولة مقضى عليها بالفشل ، لأنها تصادم المنطق والواقع ولا تقنع أحداً . وفضلا عن ذلك فإنها عيب فنى

---

(١) ص / ٥٦ .

فى الرواية ينال من قيمتها ويجعلها عديمة التأثير أو فاترته على أضعف تقدير .

كذلك هل يعقل أنه ، فى الوقت الذى تقول فيه الرواية إن سورنچان كان مهدّدا بالقتل وهو يجوب الشوارع فى فترة الغليان الطائفى وحوادث الاعتداء المتصلة على الهندوس وبيوتهم ومعابدهم ومحلاتهم وممتلكاتهم ، كان كل ما فكر فيه هو « أن يلعب الكرة ويتناول الفواكه [١] أو يركّب الأخشاب ويلعب الكريكيت » ، وذلك بغية استعادة طفولته ، أو يكون كل ما يرغب فيه ، عندما كان يسمع وهو فى الشارع قائمة الكوارث التى أوقعها المسلمون المتعصبون بأبناء طائفته ، « هو ركل الأحجار فى طريقه كما اعتاد أن يفعل خلال طفولته » ؟ [٢] إن هذا يشبه ما يفعله أنور وجدى فى أحد الأفلام حين يضع يده بطريقة متلصصة فى جيبه حيث كان جالسًا وسط مجموعة من الناس يشاهدون امرأة له علاقة بها تغنّى ، وقد بدت فى عينيه نظرة مريبة . ونتوقع نحن المشاهدين أن يخرج من جيبه مسدسًا ويطلق الرصاص على المغنية . ولكننا نفاجأ به يُخْرِج بنفس الطريقة المتلصصة منديلا يمسح به عرقه . وهو ما يذكرنا بالمثل القائل :

---

(١) هذا ما جاء فى الترجمة ، وهو خطأ ، والصواب هو أنه ودّ لو يستطيع أن يلعب كرة القدم بثمرة من ثمار فاكهة الچمبورا لا أن يأكل الفواكه (P. 28) .

(٢) ص ٥٩ ، ٦٢ .

« تمخض الجبل فولد فأرا » !

كذلك هل يُعْقَل أن يقوم أحد فى الثانية صباحا بالإعداد لمظاهرة من المظاهرات ؟ [١] إن هذه أول مرة نسمع فيها بتظاهرة تُرَتَّبُ والناس نيام ! فهذا شيء غير واقعى بالمرة .

وفى منتصف الرواية نجد مايا تبدى استغرابها وضيقها من مشاركة الأطفال الهندوس فى تلاوة « الفاتحة » فى طابور الصباح بالمدرسة وعدم مراعاة المسؤولين عن التعليم وضع صلوات من مختلف الأديان لتلاوتها مع « هذه السورة » [٢] . ووجه الغرابة فى ذلك أن مايا كانت تحب شابا مسلما وتتوق إلى الزواج منه ، ولا تجد مانعا أن تنطق بالشهادتين وتصبح مسلمة وتغير اسمها الهندوسى ، بل إنها ذهبت وعاشت لبعض الوقت مع أسرة مسلمة كأنها واحدة منهم [٣] . فكيف بعد ذلك كله تنفر من « الفاتحة » هذا النفور الشديد ؟

ومما لا يمكن أيضا ابتلاعه أن زملاء سورنچان يأتون إليه ، ويجلسون معه وقتا طويلا وسط حطام الحجرة التى دمرها مختطفو أخته ، ويتناقشون معه فى موضوعات شتى ، وكل هذا دون أن يلاحظ أحدهم

(١) ص / ١٠٤ . وهى مظاهرة كان يعدها شبان مسلمون ضد الهندوس .

(٢) ص / ١١٨ - ١١٩ .

(٣) انظر ص / ٤١ - ٤٣ .

ما أصاب الحجرة من تحطيم وتخريب أو يعلق عليه بشيء ، ثم يأتى بعد ذلك صديقه بولوك ويكون هو الوحيد الذى يتنبه لهذا ، وإن ظن أن سورنچان هو الذى كسّر الأثاث فى لحظة غضب [1] . وغير واقعى ألا يلاحظ الجالسون فى الحجرة التخريب الذى لم يترك شيئا فيها على حاله ، وغير واقعى أيضا ألا يخطر لبولوك من أسباب هذا التخريب إلا أن سورنچان هو الذى فعل ذلك فى نوبة غضب ، ولا يفد على ذهنه أن يكون المتعصبون المسلمون هم الذين أحدثوا هذا ، مع أنه هو السبب الذى كان لا بد أن يخطر فى ذهنه للوهلة الأولى . ألم تنسب الرواية للمسلمين كل الشرور التى فى الدنيا ؟ فكيف فاته ذلك ؟ إن هذا ينافى الواقعية منافاة شديدة !

على أن هذا كله يهون بجانب ماهو آت ، إذ حينما سمع أهل مايا بعد اختطافها بعدة أيام أن جثة فتاة تشبهها قد عُثِر عليها طافية تحت أحد جسور دكا نراهم يقررون عدم الذهاب للتحقق من صاحبة الجثة . والسبب ؟ السبب هو أنهم يريدون ألا يفقدوا الأمل فى عودتها يومًا ، بخلاف ما لو ذهبوا ووجدوا أن الجثة هى فعلا لابنتهم ، إذ لن يكون أمامهم عندئذ إلا اليأس، وهو ما لا يطيقونه ! ترى هل يمكن لأى عقل أن يهضم هذا التصرف الذى هو العَتَه بعينه ؟ لكن ذلك ليس

---

(١) انظر ص / ١٧٥ . وانظر أيضا ص / ١٨٨ ـ ١٨٩ .

نهاية هذه المسرحية العبثية ، إذ لا يمر إلا يوم واحد ، هو اليوم الأخير في الرواية ، وتقرر الأسرة الرحيل عن بنجلاديش إلى الهند ، طبعًا دون مايا بل دون التفكير في شأنها ، وكأنها ورقة نقدية من فئة العشر تكّات ضاعت من صاحبها فشغلته دقائق ثم نسيها ومضى في سبيله خفيف البال ناعم الضمير ! أيمكن أن ينسى والدان فلذة من فلذات أكبادهما بمثل هذه البساطة ويرحلا عن بلدهما إلى غير رجعة دون أن يعرفا مصير ابنتهما ؟

وإلى جانب العيبين السابقين هناك عيب ثالث لا يقلّ عنهما فداحة . ألا وهو التناقض . فالرواية تقوم على أن الدين غير صالح لتكوين الأمم . وقد تكررت هذه الفكرة في عدة مواضع منها ، بدءًا من صفحاتها الأولى ، حيث تقتبس المؤلفة نقولا من مولانا أبو الكلام أزاد ومحمد على جناح واللورد ماونتباتن تؤكد ماتريد أن تقوله في هذا الموضوع [(١)] . لكن أحداث الرواية من أولها إلى آخرها تجرى في عكس هذا الاتجاه تمامًا ، إذ تصوّر المسلمين في بنجلاديش على أنهم وحوش مفترسة تتلذذ بأكل لحوم الهندوس [(٢)] ، وأصحاب قلوب

---

(١) انظر ص / ٢٧ .

(٢) إحدى المظاهرات الإسلامية ضد الهندوس كانت تهتف : « دعونا نمسك بهندوسى أو اثنين . لنأكلهم فى الصباح وفى المساء أيضًا » (ص / ٤٦) ، وكأن المسلمين هم بعض أولئك الوثنيين الذين كانوا يعيشون فى مجاهل غابات إفريقيا قديمًا ويأكلون لحوم البشر !

صخرية ضَرَيَتْ على تهديم المعابد وإحراق البيوت والمحلات واغتصاب النساء والفتيات ... إلخ . إن هذا التناقض يضرب الرواية فى الصميم ويجعلها كأن لم تكن ، فهذا هو اختلاف الدين بين المسلمين والهندوس فى بنجلاديش يجعل الوحدة الوطنية بين الطائفتين مستحيلة أو تكاد ، على حسب ما تقول الرواية . فما العمل ؟ ولا يقل أحد إنها لا تتهم بالطائفية الا الجماعات الإسلامية وحدها ، فقد هاجمت أيضا المسلمين العلمانيين والليبراليين ووصفتهم بالتعصب والطائفية ، واتهمت المسؤولين فى الأحزاب السياسية المختلفة بالاشتراك فى اضطهاد الهندوس لإجبارهم على الهجرة إلى الهند . ولم ينج من ذلك حتى الذين كانوا يتعاطفون بقوة مع الهندوس ، إذ قال عنهم سورنچان (بطل الرواية والمعبّر عن آراء الكاتبة) إنهم يقتلون الهندوس بالليل ويتظاهرون بالشفقة عليهم نهارا ، كما أنكر على الشيخة حسينة اهتمامها بمصير المسلمين الهنود ، واتهمها بأنها تطعم الشعب البنجلاديشى مشاعر العداء للهند والولاء للإسلام (١) .

وتقول الرواية فى هذا الصدد أيضا (على لسان سورنچان المتحدث باسم المؤلفة كما بيّنّا) إن « الدين (فى بنجلاديش) يفرض نفسه

(١) انظر ص / ١٢٧ ، ١٣١ ـ ١٣٢ ، ١٨٣ .

بقوة على المناخ الاجتماعى ، ومن الصعب على شعوب العالم الثالث الفقيرة والضعيفة والمعذبة أن تهرب من قبضته الحديدية » ، ثم تسوق ما قاله ماركس فى هذا الموضوع من أن « المشاكل التى تتعلق بالدين هى فى الحقيقة تجلّ لأوجه النقص العملية واعتراض عليها أيضا . الدين هو تنهيدة المعذب والمضطهد ، قلب هذا العالم الذى لا قلب له ، وروح المجتمع الذى لا روح له . الدين هو أفيون الشعوب »[1] . فهل هذا صحيح ؟ هل صحيح أن الدين لا يجد مرتعا له إلا فى المجتمعات المتخلفة ، وأن الدول المتقدمة لا تربطها بالدين أية وشيجة ؟

لقد دخل مثلا فى دين محمد ﷺ بمكةَ الفقراءُ والأغنياء ، وعند تأسيس دولة المدينة ازداد المسلمون تمسكا بدينهم ، وكذلك عند توسع دولتهم وتحولها إلى إمبراطورية تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسى ، وظل الحال هكذا حتى مشارف العصر الحديث . وهى فترة شهدت ازدهاراً هائلا للمسلمين عقَبَهُ ركود وانحطاط ، مما يعنى أنهم فى تقدمهم وتخلفهم على السواء كانوا مستمسكين بدينهم وينظِّمون شؤون حياتهم على أساس منه . وها هى ذى أمريكا قد قطعت فى التقدم والغنى أشواطًا لم تكن تدور فى خيال أحد من قبل ولا حتى فى المنام والأحلام . ومع ذلك فإن مشاعر العداء هى التى توجه موقفها حيال المسلمين ، وهى مشاعر دينية فى المقام الأول . ولا تنفرد أمريكا بهذا بل تَشْرَكها فيه دول أوروبا . وما موقف الغرب من مسلمى البوسنة

---

(1) ص / ١٤٨ .

والهرسك منا ببعيد ! ليس ذلك فقط ، فهناك الصراع داخل المملكة المتحدة بين الأيرلنديين وبقية البريطانيين ، وهو صراع دينى . لا بل صراع مذهبى ، وهو أضيق أنواع الصراعات الدينية . أليس هو صراعًا بين البروتستانت والكاثوليك ، وكل من الفريقين ينتمى إلى النصرانية؟ ولماذا نذهب بعيدا ؟ إن إسرائيل جارتنا قد قامت على أساس دينى . فهل يمكن أن تُعَدّ إسرائيل ضمن الدول المتخلفة ، وهى فى عمومها دولة أوروبية زُرِعت زرعا فى قلب العالم العربى والإسلامى ؟ وهل كوبا، التى نبذت الدين واعتنقت الماركسية ومازالت تقبض عليها بأصابع متشنجة ، يمكن أن تصنَّف ضمن الدول المتقدمة الغنية ؟ إنها فى الساقة من صفوف دول العالم المتخلفة .

ثم إن الإسلام لايمكن أن يكون أفيونا للشعوب ، لأن الأفيون ليس إلا مخدرا يشلّ فاعلية الإنسان ومنفذًا يهرب عبره من واقعه المحبط دون أن يغير فيه شيئا ، أما الإسلام فهو بلسم للقلب يحصنه ضد اليأس ويساعده على الصبر والصمود إلى حين انقشاع الظلمات المدلهمة . وهو صرخة فى وجه الظلم والاستبداد والفقر والتخلف والاستعمار والجهل والتفرق والتواكل والعجز . والذين يفهمون الإسلام على عكس هذا هم المخطئون . يستوى فى ذلك المنضوون تحت لوائه والخارجون عليه والمعادون له من أتباع الديانات والمذاهب الأخرى .

هذا ، ولا ندرى سرّ اعتراض سورنچان (وهو أداة المؤلفة فى التعبير عن أفكارها ومواقفها) على إضافة مسلمى بنجلاديش كلمة « بسم الله » إلى الدستور فى سنة ١٩٧٨م وإعلان الإسلام دينا قوميا للدولة [١] . إن هذين المطلبين لم تفرضهما بالقوة سلطة علوية ، بل طالبت بهما حركتان شعبيتان كما يقول هو نفسه ؟ فما وجه الخطإ إذن ؟ أليست هذه هى الديمقراطية ، التى يصرخ معظم شعوب العالم الثالث من نار الحرمان منها ؟

لكن الرواية ، للأسف والعار ، لا تبالى بالديمقراطية والحرية بالةً ما دام الأذى يمس المسلمين . وهذا واضح فى ابتهاجها بمنع الحكومة الجزائرية « الأصوليين » (كما تسميهم) من الوصول الى السلطة رغم نجاحهم الساحق فى الانتخابات التى نظمتها تلك الحكومة نفسها. وكذلك هو واضح فى أساها على عدم قمع الحكومة البنجلاديشية للجماعات الإسلامية ، التى تسميها بـ « الجماعات الأصولية والفاشية »[٢] . إن كاتب هذه السطور لا ينتمى لأى حزب سياسى أو أية جماعة دينية ، ومع ذلك فلا بد من احترام إرادة الشعوب حتى لو اختارت أن يحكمها الشيطان ، أما القمع فهو سلاح العاجزين

---

(١) انظر ص / ٨١ .

(٢) انظر ص / ١٨٥ .

الذين يبغون فرض رأيهم بالقوة الغشوم رغم أنف الشعوب .

وهناك عيب آخر يسيء إلى بنية الرواية إساءة شديدة ، إذ يصطدم القارئ بين الحين والحين أثناء متابعته لأحداثها بوقائع تبرز أمامه فجأة دون مقدمات تمهّد لها من قبل عند تعرض الكاتبة للفترة التاريخية التى وقعت فيها هذه الأحداث بحيث لا يشعر باستغراب ودهشة حينما تذكر الرواية بعد ذلك أنها حدثت . فعلى سبيل المثال يفاجأ القارئ فى الصفحة السبعين بالمؤلفة تتحدث عن تخفى سودهاموى طوال السنوات السبع السابقة على انفصال بنجلاديش فى سنة ١٩٧١ م عن باكستان فى كوخ من البوص تحت اسم إسلامى مستعار هو وزوجته ، وتَذْكُر أنه قضى وقتًا طويلا فى معسكرات الاعتقال التى كان الباكستانيون يضعون فيها المطالبين بالانفصال من أبناء باكستان الشرقية (التى سميت بعد ذلك « بنجلاديش ») . ومبعث الغرابة فى الأمر أن الرواية قد تحدثت قبل ذلك عن هذه الفترة نفسها فى حياة سودهاموى وأسرته ، وليس فى الكلام ما يشير إلى اعتقال أو مطاردات وتَخَفٍّ فى الأكواخ ، بل على العكس من ذلك يُفْهَم منه أنه كان يعيش فى منزله ويمارس عمله كطبيب ، وأن كل ما كان يمارسه من نشاط سياسى لا يتعدى الاشتراك فى المظاهرات [١] .

---

(١) ص / ٣٦ ـ ٤٠ .

وفى الفصل الثالث من الرواية يأخذ سورنچان فى استرجاع حياته الماضية ويصل إلى أحداث اليوم السابق ، وهو ثانى أيام الرواية الثلاثة عشر ، وإذا بنا نفاجأ بأن أبناء الجيران كانوا يطاردونه فى الشارع فى ذلك اليوم صائحين : « أمسكوه ! أمسكوه ! » (١) ، مع أن الفصل الثانى قد حكى أحداث اليوم المذكور بالتفصيل ولم يرد فيه من بعيد أو قريب أن شيئا من هذا قد وقع .

وبالمثل نقرأ فى الفصل التاسع أن سورنچان كان كلما خرج من بيته يسمع شتائم بذيئة له ولأبناء طائفته جميعا (٢) ، مع أن أحداث الأيام الثلاثة عشر ، وبخاصة ما يتعلق منها بخروجه من البيت وتطوافه فى شوارع المدينة ، مذكورة بتفصيل شديد ، وليس فيها أن أحداً كان يتعرض له بأذى .

إن هذه الأشياء تصيب بناء الرواية بالتفكك والخلل . وهى تدل على أن المؤلفة لم تحكم تخطيط عملها ، بل ربما لم تصمم له تخطيطا أصلا وتركت قلمها يجرى فوق الورق على هواه . وليس هذا من الفن فى شىء ، فليس الفن هو تحبير الورق والسلام ، وليست القصة مقالا أو دراسة لا يهمنا منها سوى الفكرة والعرض الواضح

---

(١) ص / ٨٣ .

(٢) ص / ١٨٨ .

واللغة السليمة ، بل هى عمل فنى له أصوله ومقتضياته . وواضح أن قلم تسليمة نسرين ليس ضليعا فى تقنية القصّ وأنه يجهل الفرق بين البيانات السياسية والمنشورات التحريضية وبين كتابة القصص والروايات .

ومما يعيب الرواية أيضًا خلوّها من وصف البيوت والشوارع والأسواق والمحلات ودور العبادة ، والسماء والأنهار والقوارب ، والناس والأزياء ، والحافلات والسيارات والدراجات . إن الرواية بهذا الشكل تبدو وكأنها قائمة وسط الفراغ : لا حسّ ولا حركة ولا رائحة ولا لون ولا شىء . إن مما يميز الفنان رهافة حواسّه واهتزازها لأقل شىء حوله . أما تسليمة نسرين فكأنما قد حيل بين جوارحها وبين الأشياء . إن جانبا كبيرا من عبقرية نجيب محفوظ القصصية مثلا تكمن فى لوحاته الوصفية التى تنتفض بالحياة والحركة فى معظم رواياته ، وذلك على عكس بعض روايات الفترة الأخيرة ، مثل « رحلة ابن فطومة » ، التى نفتقد فيها إلى حد كبير هذه اللوحات . إننا إذ نتجول معه فى دار الحلبة مثلا (وهى إحدى البلاد التى زارها قنديل بطل هذه الرواية) لا نرى سيارات ولا قطارات أنفاق بل كثرةً من الهوادج الذاهبة والآئبة . وهو حين يصف الشوارع والمبانى والفنادق يسوق كلاما موجزا عاما كأنه يكتب كتابا فى الجغرافيا . وعندما يسمع قنديل أذان المسجد نجده

يسير على هديه حتى يجد مسجدا فيدخل ويتوضأ ويقف فى الصفّ ويصلى الظهر فى فرحة متوهجة بعين دامعة وصدر منشرح ، وكل ذلك دون أن يأتى ذكر لأى أناس سواء كانوا فى طريقهم إلى المسجد أو كانوا يتوضأون أو يخلعون نعالهم ليدخلوا الجامع . وإنما تأتى الإشارة إلى الناس بعد هذا كله على نحو خاطف كالبرق ، إذ يقول : « تمت الصلاة ، ومضى الناس ينصرفون ، ولكنى تسمرت فى مكانى حتى لم يبق فى الجامع إلا الإمام وأنا » .

أين الأصوات ؟ أين الألوان ؟ أين حركة الناس ؟ أين وصف المسجد وقبته ومئذنته فى وسط هذا المحيط الغريب ؟ إن الإنسان ليحس كما لو كان يتجول فى مدينة مسّتْها عصا ساحر فحولت البشر فيها وكل شئ حىّ إلى صخر ساكن (١) . وهذا وأكثر منه يصدق على رواية تسليمة نسرين . وإذا كان لنجيب محفوظ بعض العذر لأن « رحلة ابن فطومة » هى رواية فكرية رمزية ، والبيئات التى تجرى فيها الأحداث بيئات تنتمى إلى عصور تاريخية قديمة ، فما عذر الكاتبة البنجلاديشية ؟

لقد ذهبت مايا مثلا إلى كلكتا بالهند فى زيارة لبعض الأقارب

---

(١) بشىء من التصرف عن كتابى « فصول من النقد القصصى » / ١٩٨٧ م / ٢١٢ - ٢١٣ .

هناك ، وكان ذلك أيام عيد البوجاس الهندوسى . وقد كانت هذه فرصة لا بد من اهتبالها لوصف مظاهر الاحتفال بهذا العيد فى الشوارع والبيوت وانعكاس ذلك على مظاهر الحياة ونفوس الأطفال ... إلخ . إلا أن كل ماقالته الكاتبة فى هذه المناسبة هو : «كلكتا خلال البوجاس تمتلئ دائما بالأضواء والمرح والتسلية » [١] . لكن ، يا مؤلفتنا العزيزة ، ليست كلكتا هى وحدها التى تفعل ذلك فى العيد ، فكل المدن فى جميع بلاد العالم تفعل هذا فى سائر المناسبات والأعياد . فأين الخصوصية التى تميز عيدا عن عيد وبلدا عن بلد؟

وفى الصفحة السادسة والأربعين بعد المائة يتمشى سورنچان فى شوارع دكا القديمة . ونقرأ ونقرأ ونقرأ ، ونقلب الصفحات صفحة بعد أخرى فلا نجد وصفا لهذه الشوارع التى كان يجوس خلالها بطل الرواية ، اللهم إلا هذه الجملة : « فى دكا القديمة لا حظ سورنچان أن محلات الهندوس لاتزال مغلقة » [٢] ، وكذلك هذه الجملة : « المدينة من حوله تمتلئ بأناس يمشون ، كلٌ إلى طريقه نحو هدفه » [٣] ، ثم هذه العبارة : « توقف عند أحد المحلات واشترى سيجارة « بانجلا فايف » . وصل الى تقاطع كاكريل واستأجر عربة

---

(١) ص / ١١٦ .

(٢) ص / ١٤٧ .

(٣) نفس الصفحة .

ريكشا . هذه الأيام ... تنام المدينة مبكرا مثل رجل مريض »[١]. وهذا كل ما هنالك، وهو ما يصدق على سائر الرواية .

وأخيرا وليس آخرا فإن الرواية تأخذ جانب الهندوس على طول الخط وتنحاز اليهم انحيازا مطلقا وتصورهم ملائكة وادعين وأطهارا مبرئين من جميع النقائص والعيوب ، أما المسلمون فقد جُرّدوا من كل فضيلة وأُبرزوا فى هيئة ناس متوحشين ذوى مشاعر متحجرة وأذواق فاسدة وعقول غبية متخلفة . إن سودهاموى ، كما جاء فى الرواية ، طبيب واسع الأفق ، إنسانى النزعة ، لايعرف التعصب بل يسمو بفكره وعواطفه فوق حدود الأديان . وهو وادع النفس ، صبور على الأذى ، يحاول أن يلتمس العذر للمسلمين المتوحشين ما وسعه ذلك ، ولا يعرف الحقد ولا الشر إلى قلبه سبيلا . وزوجته كيرونموبى حمامة وديعة مستكينة ، تتفانى فى خدمة أسرتها ومرضاتهم ، وقلما تفكّر فى نفسها أو تطلب من زوجها ماتطلبه النساء من فساتين وأحذية وحلىّ . حتى عندما أصاب زوجَها العجزُ الجنسى تقبلت الأمر فى هدوء ورضا ولم تعد تهتم بهذا الجانب وكأنها قد استحالت مخلوقا أثيريا لا يعرف نزعات اللحم والدم[٢] . أما سورنچان فهو شاب واسع الثقافة عميقها ،

---

(١) ص / ١٥٣ .

(٢) قارن بيارفين ، الفتاة المسلمة التى كان يحبها سورنچان ويريد أن يتزوجها فتذكّره بأنها لا يمكن أن تتزوج منه إلا إذا أسلم ، لكنه يرفض ذلك فتتزوج من رجل أعمال مسلم =

رحيب الاهتمامات ، يكرّس وقته وحياته للعمل السياسى خدمة لجموع الفقراء من مسلمين وهندوس . وقد أنهى دراسته متفوقا على زملائه المسلمين ، ومع ذلك فقد حُرِم من الوظيفة فى الوقت الذى حصلوا هم عليها رغم نجاحهم بالغشّ وتدنى تقديراتهم .

حتى المناسبات والتقاليد الهندوسية والملابس والزينة التى تتزين بها النساء الهندوسيات نجد الكاتبة تشير اليها بتعاطف وحبّ شديد يخيل للقارئ الذى لا يعرف تسليمة نسرين أنها هندوسية [١] . أما الطاقية التى يلبسها كثير من المسلمين فى بنجلاديش فترتبط فى الرواية بالتدمير والإحراق والقتل والاغتصاب [٢] . وعندما تأتى إحدى النساء المسلمات من صديقات كيرونمويى لتزورها هى وزوجها فى ذروة محنتهما بعد

= أتى به والداها . ولا يمر عامان حتى تصبح حياتها مع زوجها جحيما لا يحتمل ، ويوشك أن يقع الطلاق (ص / ١٢١ _ ١٢٤) . ويحس سورنجان بشماتة كبيرة فيها وفى أهلها لأنها لم تتزوجه وتزوجت واحداً من أبناء دينها . وهى وقاحة منه ومن مؤلفة الرواية ، التى من الواضح أنها تكره الإسلام وترمى إلى تحطيم شرائعه . وإلا فكيف يمكن أن تتزوج مسلمة من هندوسى ؟

(١) انظر ص / ١٣٧ مثلا .

(٢) فى بنجلاديش ينظر عدد غير قليل من أهل السياسة المسلمين إلى الهند بودّ ، ويعدون الخلفيات الثقافية والعادات والتقاليد فى بلادهم امتدادا لحضارة الهند (انظر مقال « بنجلاديش : هل تحاكم رئيسة الوزراء الجديدة رئيسة الوزراء القديمة بتهمة الفساد ؟ » / جريدة « الشعب » / ٢٨ يونيه ١٩٩٦م/ ٧) .

اختطاف مايا بأيام فإن المؤلفة تصورها تصويرا يبعث على الاشمئزاز ، إذ جعلتها ترتدى قبل مجيئها الملابس الفاخرة والحليّ المتلألئة ، ثم تدخل عليهما بوجه مبتسم ، أى أنها أتت للمكايدة والتشفى لا للتعزية والمواساة . وتمضى الرواية فتقول : « رأت علية بيجوم حطام الغرفة وسودهامـوى نصف المشلول ، وسمعت باختطاف مايا وعبّرت عن تعاطفها وحزنها » . وسوف تقول أيها القارئ : « لقد ظلمتَ المؤلفة بارتيابك فى موقفها من المسلمين ، فها هى ذى تقول عن السيدة المسلمة إنها أبدت تعاطفها وحزنها لمصاب الأسرة الهندوسية » ، وأجيبك أنِ اصبر قليلا حتى تقرأ ما هو آت ، إذ تقول الرواية عقيب هذا : « وفى لحظة ما سألت كيرونموى :

ـ بودى ، أليس لكم أقارب فى الهند ؟

ـ بلى كل أقاربنا هناك تقريبا .

ـ إذن لماذا لا تلحقى بهم ؟

ـ لأن هذا بلدى .

لم تستطع علية إخفاء دهشتها من رد كيرونموى . بعد كل شىء كيف يمكن لكيرونموى أن تقول بثقة علية نفسها إن هذا بلدها » [1] . منتهى الجلافة طبعا لو كان هذا هو ما حدث . لكن هل

---

(١) ص / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

حدث ذلك فعلا؟ أقصد : هل يمكن أن يحدث الأمر فى واقع الحياة على هذا النحو ؟ هذا هو السؤال .

وقبل ذلك عندما اختُطِفت مايا واستنجد أخوها بصديقه حيدر ، الذى استجاب له فى الحال وأردفه خلفه على دراجته البخارية ، وأخذا يجوبان الشوارع ويترددان على أقسام الشرطة فى رحلة مضنية بحثا عن مايا ، نجده فى اليوم التالى يسترجع أحداث الأمس ويتشكك فى كل ما فعله حيدر ، على أساس أن من الممكن ، إن لم يكن من المرجّح ، أن يكون على معرفة بمختطفى أخته والمكان الذى يخبئونها فيه . وهو يقف بوجه خاص عند تناولهما معًا العشاء فى أحد المطاعم . ولنترك الرواية تتكلم : « بينما يرقد فى الشمس يراقب القطة خطر لسورنچان فجأة أن حيدر ربما يعرف الذين خطفوا مايا ولكنه تظاهر بعكس ذلك . عندما كان يلتهم الطعام فى محل « سوبر ستار » لم يبد القلق على وجهه . على العكس تجشأ باستمتاع بعد الوجبة ودخن سيجارته ببساطة »[1] . والحمد لله أن المؤلفة اكتفت منه بأن تجشأ ودخن سيجارة ، ولم تجعله يخبط على بطنه عدة مرات رضا وحبورا .

حتى فى الاغتصاب هناك فرق : فالمسلمون يغتصبون بالسليقة ، إذ هم يفعلون ذلك كثيرا ، وهم حينما يفعلونه لا يطرف لهم جفن . إنها

---

(١) ص / ١٦٣ ـ ١٦٤ .

مسألة عادية . أليسوا وحوشا ؟ أما الهندوس فلم يقع منهم أى اغتصاب، اللهم إلا مرة واحدة يتيمة مسكينة (كدت أن أقول : وتستحق الصدقة !) ، وذلك عندما أراد سورنچان أن ينتقم لأخته . وهو، ككل شيء هندوسى فى الرواية ، اغتصاب ظريف راق . لا ، بل هو فى الحقيقة ليس اغتصابا بالمرة . ذلك أن سورنچان إنما فعل ذلك مع فتاة عاهرة (ومسلمة كما لا أحتاج أن أوضّح) . تقول تسليمة نسرين : « بالأمس فقط تحسنت صحة سودهاموى وتمكن من ممارسة النشاطات الطبيعية وانحصر الأمر فى التأوه بالألم والمعاناة طوال اليوم من فقدان مايا ، هذه الحالة المثيرة للشفقة التى لم يكن يطيق سورنچان أن يتحمل النظر إليه فيها . لابد أنهم يمزقون مايا مثل الطيور الجارحة التى تمزق فريستها . لا بد أنهم صنعوا منها وليمة . هل استمتعوا بها كما يستمتع أكلة لحوم البشر بالتهام ضحاياهم ؟ هذه الأفكار سببت آلاما رهيبة لسورنچان كما لو أنه هو الذى يتمزق تحت أسنان سبعة من الضباع »[1] . ثم يركب سورنچان عربة ركشا ويلتقط فتاة مسلمة من بنات الليل ويأخذها معه إلى البيت حيث يعرّيها ويعضها وينشب أظفاره الحادة فى مختلف أنحاء جسدها ثم يغتصبها . وبعد ذلك يأمرها بأن تغلق فمها وتخرج فورا: « فتحت شاميما الباب ووضعت قدما فى

---

(١) ص / ٢٠٠ .

الخارج . ترددت ثم عادت إلى سورنچان بنظرة تمتلئ بالتوسل . كان الدم يسيل من خدها وهى تقول :

- حتى لو كانت عشرة تاكا . أرجوك . أعطنى إياها .

اهتز جسد سورنچان بالغضب ، لكن نظرات الفتاة هدأت ثورته بعض الشيء . إنها فقيرة فى النهاية ، تبيع جسدها لتطعم فمها . إنها ضحية النظام الاجتماعى الذى تجاهل أية إمكانيات قد تكون تتمتع بها وألقى بها إلى البالوعة . ربما تريد نقود سورنچان لشراء وجبة . سحب سورنچان عشرة تاكا من جيبه وأعطاها للفتاة » [١] . ولم يستطع مع ذلك أن ينام طوال الليل بسبب تأنيب ضميره له . أرأيتم إنسانية كهذه؟ أسمعتم بمثل هذا الاغتصاب الظريف الراقى ؟ لكن ما وجه العجب ؟ ألا يكفى أن سورنچان هندوسى وليس مسلما ؟ « لو أنه استطاع فقط أن يمسح الدم من خديها قبل أن ترحل ! هل سيلتقى بها ثانية أبدا؟ إذا رآها مرة أخرى فسوف يطلب منها أن تسامحه » [٢] . يا للمسكين الرهيف القلب !

واضح مما سبق أن تسليمة نسرين قد أقبلت على كتابة روايتها وفى ذهنها الإساءة لمسلمى بنجلاديش إن لم يكن للمسلمين

---

(١) ص / ٢٠٤ .

(٢) ص / ٢٠٥ .

أجمعين . وقد ذكرتني روايتها من هذه الناحية برواية الأستاذ سليمان فياض « أصوات » التي ذُكِر في مقدمتها أنها تُرْجِمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية وتُتَرْجَم حاليا إلى الإسبانية واليونانية والدانماركية ، ورُشّحت لنيل إحدى الجوائز الفرنسية ، مما دفعني إلى قراءتها فور إحضار ابني لها من عند بائع الصحف القريب من البيت، ممنيا نفسي بوجبة قصصية دسمة ، لكنني وجدتها تمضي بطيئة فاترة بلا طعم ، زيادة على أن بناءها الفني مهلهل ولا معنى له ، إلى أن وصلت إلى الفصل الأخير ، حيث وجدت السّر في ذلك الاحتفاء الكبير الذي حظيت به من المستشرقين لدرجة ترجمتها لعدة لغات أوروبية ، إذ تتآمر أم حامد وزوجة أخيه والماشطة وامرأتان أخريان من القرية على زوجته الفرنسية ، التي كان قد أحضرها معه في إجازة لمصر بعد غياب سنوات طوال ، ويفاجئنها وهي تستمع إلى الموسيقى وتكتب بعض التقارير الصحفية في حجرتها ببيت الأسرة في القرية ، ويهجمن عليها ويكتّفنها ويحلقن لها عانتها رغم أنفها ، ثم لا يكتفين بذلك بل ... بل ماذا ؟ لعل من الأفضل ترك زينب زوجة الأخ تحكي لكم ما حدث :

« فتحتُ مصراع الباب على اتساعه لتدخل الأخريات . رطنتْ

بلغتها تحيينا أو تشتمنا ، وضحكت لها نفيسة . ونفخت سيمون مستسلمة ، وأوقفت الموسيقى بضغطة إصبع على الصندوق ، وأخذت تطبق أوراقها المفرودة على المنضدة ، واستدارت فجأة حين سمعت صوت الباب وأم خليل تغلقه .

لم تكن هناك وسيلة للتفاهم معها . أغلقت نفيسة النافذة وأحطنا بها فدرات حول نفسها باحثة عن مخرج . أمسكنا بها فصرخت وقاومت . خفنا منها فأغلقت فمها بكفي وطرحناها على السجادة في أرض الغرفة ورفعنا ذيل القميص الذى ترتديه . لم تكن تلبس تحته شيئا. وكنا نمسك بها جيدا وهى تناضل بكل ما فيها من قوة لتتخلص من ثمانية [1] أيد . وقالت نفيسة : ألم أقل لكم ؟

وراحت نفيسة تمارس مهمة تطهيرها بالمقص ثم بحلاوة العسل الأسود لتزيل القذر الذى تحمله بين فخذيها . وشهقت نفيسة وقالت لحماتى : انظرى . ألم أقل لك ؟ إنها لم تختتن .

كانت نفيسة ماتزال تكمل مهمتها بالحلاوة وسيمون ترتعد بين أيدينا. وطرحت علينا نفيسة فكرة ختانها لسيمون ، وتحمست النّسوة للفكرة ، وقالت حماتى : يا ليت . ما الذى يمنع ؟ لكن أخشى أن تفضحنا .

---

(١) الصواب : « من ثمانى أيدٍ » .

فقالت نفيسة مؤكدة : لا تخافى . لن تسمعى لها صوتا .

كانت نفيسة قد انتهت من مهمتها فأخرجت زجاجة من صدرها ونزعت غطاءها ففاحت منها رائحة البنج ، وغمست فى الزجاجة قطعة قطن أخرجتها من صدرها أيضا ثم وضعتها على أنف سيمون . رأيت فى ضوء المصباح عينيها مفتوحتين على آخرهما مليئتين بالفزع . فكرت فى أن أتركها وأدفع الكل عنها وأوقظها . تصورت نفسى فى مكانها ، لكن خطر لى أنها تبهج حامد بروحها ، وربما أيضا بجسدها (الذى يشبه الملبن بياضا وطراوة)[١] لأنها لم تختتن . وكان جسدها يسترخى تحت أيدينا ، وفمها يتوقف عن المقاومة . ويتوقف الأنين المكتوم المنبعث من أنفها ، وعيناها تنطبقان وتظلان مواربتين [٢] . قلت لنفسى : إن المسألة قد بدأت وانتهى الأمر ، ولا ينبغى أن نتوقف الآن . ما حدث حدث ، وعلينا أن نتمه . فحتى لو توقفنا لن يقلل ذلك من غضب حامد . وأكّدتُ لنفسى أنه سوف يتكتم الأمر حتى لا يفضح نفسه ويفضحها .

وأخذت نفيسة تمارس مهنتها بسعادة بالغة ، والنسوة واقفات

---

(١) تصور الرواية زوجة الأخ قطة جائعة تشتهى أخا زوجها وتحترق غيرة من زوجته ، كما تصوّر زوجها الفلاح الرافل فى نعمة أخيه قطا جائعا يشتهى زوجة هذا الأخ ويغار منه . ولا يجد الفلاح وزوجته حرجاً من تبادل الاتهامات بهذا الخصوص .

(٢) كيف تكون العينان منطبقتين ومواربتين فى نفس الوقت ؟ علم ذلك عند المؤلف .

مستريحات ينظرن إلى مهمة جليلة وفى قلق وسرور شديدين . وجذبت نفيسة ذلك الشيء [١] حتى آخره بيد ، وأخرجت باليد الأخرى موسًا حادة كموس الحلاق [٢] من جيب ثوبها ، وفتحته ومسحته فى جانب ثوبها ، ثم ضغطت بجانب السلاح وجذبت حد الموس بسرعة ، فانفصل ذلك الشيء في يدها الأخرى وتفجر دمها غزيرا . لم نر مثل هذا الدم من قبل على كثرة ما شاهدنا من طهارة للصبيان والبنات » [٣] .

وتحاول النسوة أن يكتمن الدم بكل ما تقع أيديهن عليه من قطن وقماش وبنّ وترابِ فُرْنٍ وترابٍ أحمر ، لكن دون جدوى . ثم شمّمْنها بصلة وكولونيا (ولا أدرى لماذا لم يكتبها « كالونيا » لزوم الواقعية !) لتفيق ، فأفاقت قليلا ، ثم (كما يحدث دائما فى مثل هذه المواقف فى الأفلام والتمثيليات) « مالت برأسها جانبا دفعة واحدة ، وظلت العينان مواربتين » . يعنى بالعربى « ماتت » . قتلتها هؤلاء المتوحشات المتخلفات الجاهلات الحاقدات على كل ما هو مشرق (لا تنس أن

---

(١) انظر إلى حياء المؤلف الجم ورهافة أحاسيسه ، وكيف أنه لا يذكر اسم « ذلك الشيء » صريحا ! هكذا الأصول ، وإلا فلا !

(٢) الصواب : « موسَى حادة كموسَى الحلاق » .

(٣) أصوات / مكتبة الأسرة / ١٩٩٦م / ١٠٧ وما بعدها .

لحمها أبيض مثل الملبن كما قالت زوجة الأخ التى تحترق شهوة وغيرة) وكل ما هو جميل (أليست فرنساوية من بلاد بره ؟) .

لكن بالله عليك أيها القارئ أتصدق أن هذا يمكن أن يقع ؟ أيمكن أن تجرؤ أمّ وكنّتها على التآمر على هذا النحو على زوجة الابن الأوروبية ، وهى الضيفة التى لم تكن قد مكثت فى البيت إلا أيامًا معدودات لم ير أحد منها خلالها إلا كل خير ؟ ولنفرض أنهما أرادتا أن تحِدّاها ، أفما كان ممكنا أن تفاتحاها أو تفاتح الأم ابنها فى هذا الموضوع بطريقة أو بأخرى ؟ ثم ما الذى يشغلهما أصلا فى هذه المسألة ؟ أهما اللتان ستجامعانها ؟ والله إنها لمهزلة! أعرفت الآن أيها القارئ لم احتفى المستشرقون بهذه الرواية التى ذكرت لك رداءة مستواها وتفكك بنائها وفتور عقدتها فترجموها إلى كل هذه اللغات الأوروبيـــة ؟ إنهم يريدون أن يقولوا للقارئ الغربى : انظر إلى الإسلام وما يفعله بـ « ذلك الشيء » عند البنات والنساء ! والمؤلف ، والحمد لله ، لم يقصّر فى وصف عملية الختان على النحو الذى يعجب الجمهور الغربى المتنمر لديننا . إننى لستُ من أنصار ختان الأنثى ، لكن هذا التدليس فى وصف عاداتنا وتقاليدنا شيء بشع ، فإن الأمور لا يمكن أن تقع عندنا على هذه الصورة فى مثل تلك الأحوال ، رغم تسليمنا بتخلف شعبنا فى كثير من المجالات، ومحاربتنا لكل ما هو قبيح

ومرذول فى حياتنا ، وعَمِلْنا على تنوير العقول والقلوب والضمائر لدى أبناء أمتنا .

ونعود إلى رواية تسليمة نسرين ونتساءل : أمثل هذه الرواية بعيوبها القاتلة التى سلف ذكرها وعَرْضُها تفصيلا تستحق أن توصف بالقوة والجرأة والشجاعة والسخونة ، وأن يقال فيها إنها مَثَل من الأمثلة العالية على الأدب الغاضب الذى يأخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عن قضية من القضايا الإنسانية ، كما جاء فى مقال الأستاذ رجاء النقاش بجريدة « الأهرام » ؟ لقد تناولنا بالدراسة فى هذا الكتاب ترجمة الأستاذ عصام زكريا للرواية ووجدنا أن حكم الأستاذ النقاش عليها بالدقة والامتياز والروعة حكم مبالغ فيه كثيرا جدا . وها نحن أولاء نتتهى أيضا إلى أن حكم الأستاذ النقاش على الرواية نفسها هو حكم لا ينطبق على الواقع بأى حال : فالرواية ضعيفة ومنحازة ، وبناؤها يفتقر إلى التماسك والصلابة . وهى تعتمد فى بلوغ هدفها على الإحصاءات والتقارير المنقولة عن الصحف والكتب (بغض النظر عن صدق ذلك أو كذبه) أكثر مما تعتمد على الحوادث التى يراها القارئ بعينه ولا يسمعها مجرد سماع . كما أننا نفتقد أحد عناصر الفن القصصى الأساسية ، ألا وهو عنصر الوصف مثلما بيّنّا قبل قليل . وقد كانت جريدة « أخبار الأدب » أقرب إلى الصواب حين كتبت فى كلمتها القصيرة عن

الرواية أنها « رواية عادية من الناحية الفنية أو أقل من عادية »[١] . أما مسارعة بعض الأوروبيين إلى ترجمتها فإنها لا تعنى شيئا من الناحية الفنية ، بل كل ما فى الأمر أنهم فى الغرب يرحبون أشد الترحيب بكل ما يسىء إلى الإسلام من كتابات المنتمين إليه والمحسوبين عليه .

وتبقى المقارنة التى عقدها الأستاذ النقاش فى آخر مقاله بـ « الأهرام » بين رواية تسليمة نسرين ورواية سلمان رشدى . قال : « ولا مجال للمقارنة بين الكاتبة المسلمة « تسليمة » والكاتب « سلمان رشدى » فى روايته « آيات شيطانية » ، فالآيات الشيطانية رواية سخيفة تخوض فى أعراض المسلمين بغير ذوق ولا حق . أما رواية « العار » فكاتبتها تدافع عن المبادئ الإنسانية للإسلام ، وتدعو إلى حماية الهندوس فى بنجلاديش كما دعا غاندى الى حماية المسلمين فى الهند وقَتَله المتعصب الهندوسى عقابا له على دفاعه عن المسلمين » .

أما أن « الآيات الشيطانية » رواية سخيفة فهى فعلا كذلك وأكثر من ذلك . إنها رواية بل أربع روايات مفككة لا رابط بينها ، وهى مملوءة بالهلوسات والسمادير التى لا تدور إلا فى أذهان المخمورين المطروحين أرضا ، وفيها كمٌّ هائل من البذاءات التى لا يخطر على بال

---

(١) « أخبار الأدب » / الأحد ١٤ صفر ١٤١٧ هـ - ٣٠ يونيه ١٩٩٦م / ١٣ .

أحد أن رواية من الروايات يمكن أن تحتوى عليها ، وكمٌ مثله من الكفر والتجديف فى حق الله والسخرية بالإسلام .

أما إشارة رجاء النقاش السريعة إلى خوضها فى أعراض المسلمين فتحتاج إلى بيان . ذلك أن المسلمين المشار إليهم هنا ليسوا إلا رسولنا الكريم ﷺ وزوجاته الطاهرات الشريفات .

إن « الآيات الشيطانية » هى فى الواقع أربع روايات وليست رواية واحدة ، وإن حاول كاتبها أن يوجد صلة تربط بينها . وإحدى هذه الروايات تدور فى الهند ، والثانية فى مكة والمدينة أيام الرسول ﷺ ، والثالثة فى بريطانيا المعاصرة ، والرابعة فى إيران . وهى روايات عسرة القراءة إلى حد مزعج ومنفّر . وما زلت حتى الآن أذكر الضيق والمعاناة الشديدة التى كان علىّ أن أقاسيها وأنا أقرؤها بغية عمل دراسة عنها عقب صدورها . لقد كنت أحسّ أننى آكل نشارة خشب!

وقد أفردت فى تلك الدراسة فصلا خاصًا بالبذاءات والقاذورات التى يطفح بها الكتاب ، وهو فصل طويل يقع فى نحو خمسين صفحة ، واقترحتُ فيه تسمية المذهب الفنى المقزز الذى اتبعه سلمان رشدى فى « الآيات الشيطانية » بـ « الخُرْئية »[1] ، بصيغة

(١) ترجمةً للمصطلح الطبى والأدبى " scatology / scatologie ".

المصدر الصناعى كالواقعية والرومانسية والطبيعية والرمزية ... إلخ . وفى هذا الفصل نفضت كل ما فى كتاب رشدى ، أو بالحرى برميل البول والبَراز وسائر الفضلات والعفونات والنتانات المسمى بـ « الآيات الشيطانية » ، تحت بصر القراء ليعرفوا بأنفسهم مقدار الصديد والقيح الذى يملأ عقل وقلب ذلك الكاتب الشاذ المريض : فمن شتائم مقذعة كـ « ابن الزانية » ، التى لا يفلت منها حتى أبو الأنبياء عليه السلام ، و « القحبة » و « المنيو .. » و « ابن المنيو .. » إلى« الخرا » و « الطيـ .. » ، إلى التجنى على عِرْض الرسول الكريم متمثلا فى زوجاته النبيلات اللائى لم يتورع هذا النّذل عن الإساءة إليهن دون أى سبب سوى شذوذه ومرضه وحقارته ، إذ اخترع فى الرواية الثانية من رواياته الأربع (وعنوانها « الجاهلية ») ماخوراً سمّاه « ماخور الحجاب » يضم اثنتى عشرة مومسًا كل واحدة منهن تحمل اسم إحدى أمهات المؤمنين وتتصف بصفاتها الجسدية والعقلية والنفسية ، غير مستثن من ذلك ولا أم المؤمنين زينب بنت خزيمة ، التى ماتت فى حياة الرسول ﷺ ، فقد جعل المومسَ التى تحمل اسمها ، كلما دخل عليها أحد رواد الماخور ليمارس الجنس معها ، تتصلّب وتتخشّب كأنها جثة هامدة (إشارة إلى أنها قد ماتت ، كما قلت ، فى حياته عليه السلام) ، وذلك إرضاءً لرواد الماخور المصابين بمرض

النكروفيليا (أى اشتهاء مضاجعة الموتى) ، فضلا عن الغمز واللمز فى حق الصِّدِّيقة بنت الصديق بالتلميح لحادثة الإفك ، التى يكفى لتبرئتها مما خاض فيه المنافقون أثناءها أنها عاشت بعده ﷺ عشرات السنين لم تثِر حولها أية ريبة رغم أنه قد مات عنها وهى فى قمة شبابها وجمالها، وظلت إلى آخر حياتها المديدة المباركة لم تتزوج ، لأن القرآن الكريم قد حرّم عليها وعلى سائر أمهات المؤمنين الزواج بعده عليه الصلاة والسلام.

ليس ذلك فقط ، بل يصور فى مشهد من المشاهد رسولنا الكريم ﷺ نائما فى الفراش فى بيت هند زوجة أبى سمبل (يقصد هندا بنت عتبة زوجة أبى سفيان) . وكانت هند قد التقطته ، كما يدعى هذا الأفاق ، من شوارع الجاهلية كالسكران ، فأخذت تطعمه قطع الشمام فى فمه ثم تمد يدها من طوق جلبابه وتداعبه فى صدره ...إلى آخر هذا التجديف الوقح الذى باركته أوروبا وهبت تدافع عنه بحجة الدفاع عن حرية التعبير (١) ، على حين يقدمون رجاء جارودى هذه الأيام للمحاكمة التى من الممكن أن تنتهى بسجنه لا لشىء إلا لأنه كتب

---

(١) عالجتُ كل ما يتعلق برواية « الآيات الشيطانية » فى كتاب مستقل بعنوان « ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية » (توزيع دار النهضة المصرية ودار زهراء الشرق بالقاهرة) .

دراسة تاريخية تعرّض فيها بالتمحيص لدعوى أفران الغاز التى يقال إن هتلر كان يحرق اليهود الألمان فيها ، وقدّم الأدلة العلمية القاطعة على أن هذه الدعوى لا تنهض على أى أساس .

الفصل الثالث

ترجمة الرواية

مررت على بائع الصحف صباح الأحد ٢٣ يونيه ١٩٩٦ م فى طريقى إلى الجامعة ، وأخذت أدير بصرى فى الصحف والكتب المعروضة أمام المحلّ كعادتى كلما مررت به ، ففوجئت برواية « العار » لتسليمة نسرين مترجمة عن الإنجليزية إلى العربية بقلم لم أسمع به من قبل هو قلم الأستاذ عصام زكريا . وبعد أن قلّبت البصر فى صفحاتها أعدتها إلى مكانها ومضيتُ ولم أحسم أمر شرائها ، ثم قرأت فى اليوم التالى مقالا للأستاذ رجاء النقاش فى الصفحة العشرين بـ « الأهرام » بعنوان « الغاضبة » ، وفيه دفاع قوى عن الرواية وصاحبتها وثناء حارّ على الترجمة ، التى وصفها بأنها « ترجمة ممتازة » و « راقية ممتعة » ، فنفضت تردّدى وتسويفى وعرّجت فى طريق عودتى من الكلية على بائع الصحف واشتريت الكتاب . وما إن عدتُ إلى البيت حتى شرعتُ أقرؤه .

بيد أننى فى الوقت نفسه كنت حريصا على الحصول على الترجمة الإنجليزية التى اعتمد عليها الأستاذ زكريا كى أوازن بين الأصل الإنجليزى والنص العربى ، وذلك بضغط من الإغراء الذى شكّله حكم الأستاذ النقاش على الترجمة بالامتياز والرقى ، فليس الأستاذ النقاش بالذى يُهْمَل حكمه بسهولة ، وإن كنت استغربت مع

ذلك أن هذا الحكم لم يؤسّس على المقـارنة بين النصين لأن رجـاء النقاش لم يقرأ إلا الترجمة العربية كما ذكر هو نفسه .

وبدأت رحلتى فى البحث عن التـرجـمة الإنجليـزية واتصلت بمن أشيم فيهم المقدرة على المساعدة في هذا السبيل . وبلغنى أن الكتاب موجود بمحل بيع الكتب فى الجامعة الأمريكية ، فهاتفت القائم على المحل ولكنه اعتـذر بأن الكتـاب لا يزال فى الرقـابة ، ومن ثم فـهـو لا يستطيع بحال من الأحوال أن يبيعه . فقلت له : أما كنتم تبيعونه قبل ذلك بالثمن الفلانى ؟ فكان جوابه « بلى ، ولكن تلك كانت طلبية سابقة ونفدت ، وهذه طلبية جديدة تلزمها موافقه جديدة من الرقابة » وقال لى إن بمستطاعى الاتصال به بعد أسبوعين مثلا ، فلعلهم فى الرقابة يكونون قد أرسلوا إليه التصريح ببيع الكتاب . فعدت مرة أخرى إلى الصـديق الذى كـان قـد أخبـرنى بوجـود الكتـاب فى الجـامـعـة الأمريكية، وهو الأستاذ صـلاح أبو النجا (الباحث بالمجالس القومية المتخصصة) ، فرجع بدوره الى صديقه الأستاذ عامر سلطان ، واتصل هذا بصـديقـه الأسـتـاذ إبراهيم منصـور ، الذى كلّم الأسـتـاذ عـصـام زكـريا زميلـه فـى « روز اليوسف » واستـسمحه أن يأخذ منه الكتاب ويصوّره « لأستاذ جامعى يريد أن يكتب دراسة عنه » ، فاستجاب الرجل مشكوراً . ولولا هذه الاستـجابة الكريمة مـا كـان هذا الفصـل ، الذى

أرجو أن يتقبل ما فيه من ملاحظات بسعة صدر . وهى ملاحظات حاولت جاهداً أن أسوقها بأكبر قدر من التلطف نظرا لإحساسى الشديد بالمنة التى تفضل بها حين أعارنا الكتاب لتصويره ، إلى جانب اليد التى أسداها من قبل للنقد الأدبى والفكر الإسلامى حين ترجمه . ولست أقصد بهذه الملاحظات إساءةً أو تشنيعا ، بل أهدف من ورائها إلى خدمة الأدب والفكر والترجمة .

ونعود إلى حكم الأستاذ رجاء النقاش على ترجمة الرواية . وتمحيصه يقتضى أن ننظر فى أسلوب الترجمة من جهة ، وفى مدى مطابقتها للنص الإنجليزى من جهة أخرى .

فأما الأسلوب فهو سهل بسيط واضح كالأساليب الصحفية السائدة هذه الأيام . لكنى لاحظتُ كثرة مجىء الجمل الاسمية فى مواضع تَحْسُن فيها الجملة الفعلية . كما تفتقر بدايات الجمل فى كثير من الأحيان إلى الروابط التى كان من شأنها أن تحكم الصلة بينها وبين الكلام السابق عليها . ذلك أن الجملة العربية فى كثير من الحالات لا تستقر فى موضعها تماما إلا إذا بُدِئت بالواو أو الفاء أو بعبارة مثل « وقد » أو « إلا أن » أو « إذ إن » ... إلخ . وهذه بعض شواهد من الصفحات الأولى فى الرواية على ما نقول : « كان سورنچان راقدا فى فراشه . أتت أخته نيلانچانا ، التى يطلقون عليها اسم مايا ، ودخلت

الغرفة مرة أخرى ... عرف سورنچان أن مايا تريد منه البحث عن مكان يختبئون فيه مؤقتا من الخطر الذى يتهددهم ... تذكّر هذا اليوم ٣٠ أكتوبر ١٩٩٠ بوضوح . كمال ، الذى يعيش فى إسكاتون خاف عليهم من التعرض لأى مكروه ...كمال لم يكن لديه سبب يدفعه إلى الهروب أبدا ... هذه المشاهد فى بيت آل دوتا كانت تجرى فى السابع من ديسمبر ... المتطوعون المتعصبون انضموا إلى مشروع لتطهير المنطقة فى المسجد وحوله ... حدثت هذه الدراما بأكملها فى حضور ضباط أصحاب رتب عالية ... » (١).

ومرجع هذه السمة فيما أظن هو أن المترجم قد ترك النص الإنجليزى بجمله الاسمية الخالية عادةً من الروابط المذكورة يسيّره. ولو أنه استطاع التخلص من إسار تركيب الجملة فى الإنجليزية لتغير أسلوبه .

كذلك لا بد من التنبيه إلى أن الهمزة قد أُثبتت فوق ألفات الوصل فى معظم الأحيان . وقد انتشر هذا الخطأ وأضحى يشكل ظاهرة فى الكتابات العصرية للأسف الشديد ، وإن لم تكن المسؤولية فيه دائما هى مسؤولية المؤلف ، الذى قد يحذف الهمزة من فوق ألف الوصل ، فإذا بالطابع يثبتها . وإذا كان منتظرا من الطابع بمستواه الحالى المعروف

---

(١) ص / ٣١ ـ ٣٣ . وهى الصفحات الثلاث الأولى من الرواية .

لنا جميعا مثل هذا الخطإ ، فكيف يُقْبَل ذلك من شخص يرى أنه أهل لأن يكون فى موقع الصدارة والتوجيه من قومه يرشدهم ويهديهم ويأخذ بأيديهم إلى مدارج النور والفلاح ؟

وفوق ذلك فالأخطاء النحوية والصرفية فى الكتاب غير قليلة ، ولو خلت الرواية منها لأُثْلِجت صدور القراء الغيورين على لغتهم . ولست أدرى السبب فى كثرة هذا اللون من الأخطاء فى الأسلوب العربى الحديث . لقد ظل المؤلفون العرب يصنفون كتبهم ، والأدباء العرب يبدعون نثرهم وشعرهم بلغة سليمة وراقية طوال القرون الماضية من عمر لغتنا الجميلة ، فما الذى حدث حتى تفسد لغة الكتّاب والمبدعين على هذا النحو ؟ لقد انتشرت المؤسسات التعليمية انتشارًا لم تعرفه الأحقاب السابقة ، وكثر الكِتَابُ فى أيدى الناس ، وزاحمته الصحيفة والإذاعة والمرناء وأشرطة التسجيل ، وأصبح نصيب الرجل العادىّ من الثقافة نصيبا كبيرا . وكان المظنون إذن أن يرتفع مستوى لغة الكاتبين والمتحدثين ، بيد أن الذى وقع هو العكس . وإنى ليصيبنى الغثيان كثيرا هذه الأيام وأنا أصحح كراسات إجابة الطلاب ، ومعظمهم من المتخصصين فى اللغة العربية وآدابها ، وكثير منهم فى السنة الرابعة ، أى ليس بينهم وبين الاشتغال بالتدريس أو الصحافة أو الإذاعة مثلا إلا أشهر معدودات . ومنشأ هذا الغثيان هو القبح السائد فى معظم كراسات الإجابة : قبح فى الخطّ ، وقبح فى الأسلوب ، وقبح فى الفكر ، وقبح

فى طريقة تنظيم الصفحة ، وقبح حتى فى الشطب . وهو قبح شنيع شديد الشناعة . إن هؤلاء الطلاب هم المستقبل الذى ينتظر مصر ، ولست أظن أن البلاد العربية الأخرى أفضل حالا ، بل أرجح أن العكس هو الصحيح . وليلطف الله بنا !

على أن مترجم الرواية رغم ذلك أفضل حالا من كثيرين غيره من الكتاب المعاصرين ، وبعضهم أكثر منه شهرة وأغزر إنتاجًا ، ولكن أخطاءهم مع ذلك أكثر وأفدح وأفظع . وقد أشرت إلى هذا الأمر فى مقال لى ظهر فى صحيفة « آفاق عربية » بعد ظهور عرض رجاء النقاش لرواية تسليمة نسرين بأيام ، وكان عن رواية لمحمد عباس.

وعلى أية حال فهذه عيّنة من الأغلاط النحوية والصرفية والأسلوبية التى فى الترجمة رأيت أن أضعها تحت بصر القارئ . وسوف أُتْبع الخطأ بتصويبه داخل قوسين :

* هل من الضرورى لأسرته ـ أبوه (أبيه) سودهاموى وأمه كيرونموى وأخته نيلانچانا ـ أن يهربوا مثل المطاريد بسبب أسمائهم ؟ (ص / ٣١ ، وهى أولى صفحات النص الروائى) .

* ولا يبدو أنه يبال (يبالى) لشىء فى العالم (ص / ٣٤) .

* من أكبر أنواع الخداع على الشعب (للشعب) أن نقول بأن الصلة الدينية يمكن أن توحد المناطق المختلفة ثقافيا ولغويا واقتصاديا وجغرافيا (ص / ٣٧) .

* كيرونموى المرعوبة (المُرْعَبة) قالت له : ... (ص / ٣٩ . وقد تكررت هذه الغلطة فى ص/ ٥٧ ، ١٦١ ، ٢٢١) .

* انتاب سودهاموى ألم فى أيسر (فى الجانب الأيسر من) صدره (ص / ٤٠) .

* ظمآنا (ظمآنَ) إلى الشاى لايزال (ص / ٤٣ . وقد تكررت فى ص / ٨٨) .

* وتذكر كيف كانت جوافا (جوافة) حديقتهم هى الأفضل (ص / ٤٩) .

* وكان يقول لأصدقائه وأسرته أن (إن) البنغاليين كعِرْق لا يجب أن (يجب ألا) يصنفوا أنفسهم بفروق طائفية أيا كانت (ص / ٥٦) .

* إذا أتى المسلمون وقطعوهم إربا (إرْبًا إرْبًا) فليفعلوا (ص / ٥٧) .

* فقط الكلاب التى لا تعانى من الخوف بدت أنها (بدا أنها / بدت) تجرى مبتهجة (ص / ٥٩) .

* حدّق سورنجان علَى (فى) أطلال المكتب المحترق (ص / ٦٠)

* فى الهند قُتل مائتا شخص فى حوادث عنف وإطلاق النار من البوليس (وبنيران بنادق البوليس) (ص / ٦١) .

* وبعد قليل جاء لوتفور بنفسه مذهولا (ذاهلا) من رؤيته (ص / ٦٢) .

* أراد سورنچان أن يشعل سيجارة أخرى ، ولكن سلوك لوتفور وتحذيراته المستمرة أثنته (ثنّته) عن إشعالها (ص / ٦٣) .

* ولكن الطارق كان أختارو جامان الأستاذ المتقاعد فى الجوار (فى نفس المنطقة) (ص / ٦٥) .

* ربما يعيد إليه كوبا (كوبٌ)من الشاى بعضَ الحيوية (ص / ٦٦) .

* الأفضل أن يكون الإنسان آمنا عن أن يكون آسفا (أفضل للإنسان أن يكون آمنا من أن يكون آسفا) (ص / ٦٧) .

* إنها ابنه محامى (محامٍ) شهير (ص / ٦٧) .

* ١٩٧١ كان عاما سيئا عليه (بالنسبة إليه) (ص / ٦٩) .

* عندما تتجاوز (يتجاوز) بلَدان وتندلع النار فى إحداهما (أحدهما). فلا بد أن يطير بعض الشرر إلى الجيران (ص / ٧٣)

* كان سورنچان يقول لها : انس (انْسَىْ) البوجاس (ص / ٧٧) .

* ونادرا ـ إن لم يكن مطلقًا ـ ماطلبَتْ أى دعم مالى من أجل دراستها (ونادراً ما طلبت أى دعم مالى من أجل دراستها ، إن كان قد حدث ذلك أصلا) (ص / ٧٨) .

* عاد سودهاموى من معسكر الاعتقال بعد أيام قليلة . هل كانوا (كانت) سبعة أيام ؟ (ص / ٨٩) .

* سوف ينهار هدوئها (هدوؤها) غير الطبيعى (ص / ٩٠) .

* البوليس كان متواجدا (موجودا) فى المرة الأخيرة أيضا (ص / ٩٧) .

* لم يطرق سورنچان باب البيت الأمامى لأن الوقت كان متأخر (متأخرا) (ص / ١٠٥) .

* كلهم بخير باستثناءه (باستثنائه) هو وأسرته (ص / ١٠٦) .

* ولكنى أعتقد أن كيس أمى خاوى (خاوٍ) (ص / ١٢٥) .

* هل لازلت (أما زلت) تتابع آخر تطورات الموقف فى البلد ؟ (ص/ ١٢٥) .

* قتلوا وضربوا رجالهم واغتصبوا نسائهم (نساءهم) (ص/ ١٢٥).

* فى تاجمودين دُمِّر ألفان ومئتا (ومائتا) منزل تماما وألفان (وألفا) منزل جزئيا ، وفى بهولا دُمِّر مئتين (مائتان) وستة معابد (ص/١٢٦) .

* كان قد أعطى الألفين تاكا (الألفى تاكا / ألفى التاكا) لأمه فى الليلة الماضية (ص / ١٣٢) .

* أنت تعلمين ، فأعطنى (فأعطينى) بعض النقود من أجل السجائر (ص / ١٤٣) .

* كيف يفتحوا (يفتحون) محلاتهم ؟ (ص / ١٤٧) .

* سوف يخسروا (يخسرون) شعبيتهم (ص / ١٤٩) .

* السماء أعلم بأين (أين) يحوم طول اليوم حتى الآن (ص/ ١٥٥) .

* اندفع سبعة رجال إلى الداخل ... أربعة منهم مسلحين (مسلحون) بالقضبان (ص / ١٥٥) .

* المرايات (المرايا) الزجاجية (ص / ١٥٥) .

* ملابسها مفتوحة مثل عيناها (عينيها) الجاحظتين بالهلع (ص/ ١٥٦) .

* مايا وكيرونموى ليسا (ليستا) هناك (ص / ١٥٧) .

* دائما ما كان يحب سورنچان صوت الآذان (الأذان) ... صوت الآذان (الأذان) كان يعنى مجىء الفجر (ص / ١٦٠) .

* ربما لا تكون لمايا فى برنامج أشياءه (أشيائه) (ص / ١٦٤) .

* كل الأخوات يطلبن من اخواتهم (إخوتهن) الكبار أشياء طفولية : اخرجنى (أخرجنى) معك . اشترى (اشتر) لى ذلك (ص/١٦٤) .

* كان مشغولا للغاية ، مشغولا بنفسه على (عن) أن يعتني بها (ص / ١٦٤) .

* لم تقل أبدا : « أريد هذا الساري » أو « اشترى (اشتر) لي هذا الحلق » (ص / ١٦٧) .

* أنا أيضا أريد سواطير وخناجر ومسدسات وقضبان (وقضبانا) حديدية (ص / ١٧٢) .

* النهب والمذابح كانوا (كانت) ردَّ فعل تلقائي (تلقائيا) (ص / ١٧٦) .

* من شدة الذهول لم يجد أحدا (أحدٌ) منهم شيئا يقول (ص / ١٧٧) .

* يداها ناعمة (ناعمتان) مثل يدى مايا (ص / ١٨٠) .

لا بد أنها أيدى (أيدٍ) خشنة ووقحة وقاسية (ص / ١٨٠) .

* لديهم الحق ... علَى (في) حفظ وحماية حياتهم وممتلكاتهم (ص / ١٨٣) .

* ما لا يدركوه (يدركونه) هو أن الأمر في بنجلاديش من جانب واحد فقط (ص / ١٨٤) .

* ويُعْرَف مواطني (مواطنو) بنجلاديش باسم البنجلاديشيين (ص/ ١٨٧) .

* في كل مرة يغلق عينيه كانت تمتد نحوه يد حيوانية هائلة ترغب في خنقه . لا واحدة ولكن أيادى (أيادٍ) كثيرة تندفع نحوه (ص / ١٩٣) .

* لكن حتى هذا لم يخيفه (لم يُخِفْه) بقدر ما أخافه إحتمال (احتمال) خطف إبنته (ابنته) أنجالى (ص / ١٩٤ ـ ١٩٥) .

* أدرك سودهاموى أنه لا فائدة من محاولة إثناء (ثَنْى) نونيچوبال عن الرحيل (ص / ١٩٥) .

* كم بالضبط عدد الهندوس الذين يجب أن يعانوا ويموتوا في هذا البلد من أجل تسديد أخطاء هندوس الهند ، سواء أخطاءهم (أخطاؤهم) في الماضى أو في الحاضر ؟ (ص / ١٩٦) .

* إذن لماذا لا تلحقى (تلحقين) بهم ؟ (ص / ١٩٧) .

* وبقدر ما كان يحب الاشتراك في هذه الأناشيد بقدر ما لايحب ذلك الآن (لم يعد يحب ذلك الآن) (ص / ١٩٩) .

* من الحماقة أن نواجه سلاحا بأيدى (بأيدٍ) عارية (ص/ ٢١٠) .

* أن يقال أنّ (إن) الهندوس يُضْطَهَدون أمر يُفَضَّل أن يقوله مسلم وليس هندوسى (هندوسيا) (ص / ٢١١) .

* لابد أنها تأمل فى أن يأتى سورنچان ذات يوم ويطرق بابها ويجلسان ويتحدثان (ويجلسا ويتحدثا) معا عن حياتهما أثناء تناول الشاى (ص / ٢١٤) .

* اختارت بارفين أن تتزوج شخص مسلم (شخصًا مسلمًا) (ص/٢١٥) .

* كلما أحببنا هذا البلد ... كلما أجبرونا على الانحناء فى الأركان . كلما أحببنا أناس هذا البلد كلما عزلونا (كلما أحببنا هذا البلد أجبرونا ... كلما أحببنا أناس هذا البلد عزلونا) (ص / ٢١٨) .

* فَهْمُه ، بصيرته وإحساسه بالعالم كانوا يتلاشون (كانت تتلاشى) إلى لا شيء (ص / ٢٢٠)

* أجبر نفسه على أن يقول أنهم (إنهم) راحلون (ص / ٢٢٢ ، وهى آخر صفحة فى الرواية) .

ومما سبق يتبين لنا أن الأغلاط اللغوية والأسلوبية تنتشر فى ترجمة الرواية كلها من أول صفحة فيها إلى آخر صفحة . كذلك فقد كان من الممكن تدارك جلّ هذه الأخطاء ، إن لم يكن كلها ، فهى ليست بالأخطاء المعقدة التى يصعب التنبه لها . ترى كيف يصحّ أن ينصب كاتبٌ الفاعلَ ، أو يجرّ المفعول ، أو يحذف نون الأفعال الخمسة دون موجب من ناصب أو جازم ، أو يثبت ياء الاسم النكرة المنقوص فى حالة الرفع أو الجرّ ، أو يستعمل ضمير الذكور العقلاء للجمادات ، أو

يكرر « كلما / بقدر ما » مع فعل الشرط وجوابه مثلا ؟ إن هذه الأشياء كلها تقريبا هى من أوليات النحو والصرف . لكن ذلك إنما يندرج تحت ما يسمى بـ « عموم البلوى » ، ففى وقت المحن والفتن يُتَوَقَّع حدوث أى شىء ولا يعود الناس يستهولون أية مصيبة ، تمامًا مثلما نقرأ اليوم فى تبلُّدٍ أخبار قتل الأبناء لآبائهم وأمهاتهم والسرقات الفاحشة لملايين المال العام ، وتنكيل الحكومات الاستبدادية بمعارضيها ، وكذلك مثلما نأكل الطعام الملوث ونشرب الماء الملوث . ذلك أنه ليس هناك حل آخر ، اللهم إلا أن نُضْرِب عن الأكل والشرب ونموت . ومن يستطيع ذلك يا ترى ؟ دلّونى عليه !

على أن عصام زكريا ، كما سلف القول ، هو أفضل حالا ، رغم كل شئ ، من كثيرين غيره ممن هم أكثر شهرة منه وأغزر إنتاجا . خذ مثلا القصاص مجيد طوبيا ، الذى قرأت له مؤخرا روايته « عذراء الغروب » ، فوجدتها للأسف تطفح بأخطاء الإملاء واللغة والأسلوب بحيث لا تكاد تنجو من ذلك ولا جملة واحدة . وليس لهذا من معنى سوى أن الكاتب لا يعرف شيئا اسمه قواعد النحو والصرف . هل هذا معقول ؟ نعم ، معقول ونصف ، وإلا فكيف حدث ويحدث كل يوم وتجبهنا بل تصفعنا به عشرات الكتب التى تلفظها المطابع كل يوم ؟ فهذا هو عموم البلوى الذى شرحناه لك أيها القارئ الكريم والذى على أساسه قلنا إن مترجم رواية « العار » هو أفضل حالا من

كثيرين غيره . على أن هذا الذى أقوله شىء ، وحكم الأستاذ النقاش على ترجمة الرواية بأنها ممتازة شىء آخر مختلف تمام الاختلاف . إن حكم رجاء النقاش ليس له إلا دلالة واحدة ، هى أن الكلمات قد فقدت معناها أو أن القراء قد فقدوا الفهم والتمييز . فهل وصلنا حقا الى هذا الدرك الأسفل ؟ إن الأستاذ رجاء النقاش ناقد مشهور متخصص فى لغة العرب وآدابهم ، فكيف قال ما قال ؟

فهذا عن لغة الكاتب وأسلوبه . ثم نتحول الآن إلى مدى مطابقة الترجمة العربية للنص الإنجليزى . وقد اخترت حوالى أربعين صفحة من مواضع متفرقة من الرواية وموزعة عليها بطريقة شبه منهجية ، ووازنت بينها وبين الصفحات التى تقابلها فى الأصل الإنجليزى بغية إصدار حكم علمىّ بقدر الإمكان على الترجمة التى قام بها الأستاذ زكريا .

وبادئ ذى بدء لا بد من القول بأن الترجمة التى تخلو تمامًا من الأخطاء لا وجود لها . إن الترجمة عمل بشرى ، وهى ككل أعمال البشر لابدّ من تسرب الخطإ إليها مهما سدّ المترجم ، أو بالأحرى مهما ظن أنه قد سدّ ، كل الأبواب التى يمكن أن ينفذ الخطأ من خلالها . أقول هذا وأؤكده من خلال تجربتى الشخصية فى ذلك المجال ، فما من مرة ترجمتُ فيها شيئا وظننتُ أنه قد جاء بريئًا من الأخطاء بعد أن أكون قد راجعته عدة مرات ثم

صدر إلا واكتشفت أنه ما زال يشوبه عدد من الأخطاء . كيف ذلك ؟ وما الذى كنت أفعله طيلة الوقت ؟ الجواب : اسألوا الطبيعة البشرية بسهوها وتسرعها ونسيانها وكلالها . على أن ثمة فرقا بين أخطاء قليلة مبعثها السهو والنسيان مثلا وبين أخطاء فادحة كثيرة مرجعها التصدى للترجمة دون التأهل لها . وما أكثر الجُرءاء الذين لا يتوقفون ولو لحظة للتفكير فيما هم مقدمون عليه ! وكيف يتوقفون ويفكرون وهم يظنون أنهم قد حازوا الكمال والعصمة ؟ وهل الكُمَّل المعصومون بحاجة إلى تروّ أو تفكير ؟ بالطبع كلا !

ولعل القارئ بعد هذه المقدمة يتساءل : ما الرأى الإجمالى فى ترجمة عصام زكريا لرواية « العار » ؟ الرأى أنها فى جانب منها ترجمة صحيحة ودقيقة ، لكنها فى جانب آخر لا تعدو أن تكون ترجمة تقريبية . فبمقارنة سريعة بين عدد صفحات النص الإنجليزى ومقابله فى الترجمة العربية سيتضح على الفور أن النص العربى قد ترك أشياء وأشياء وأشياء من النص الإنجليزى ، إذ بينما لا تبلغ الترجمة العربية إلا مائة وستا وتسعين صفحة نجد أن صفحات الرواية بالإنجليزية تزيد على المائتين بعشرين ، مع ملاحظة أن الصفحة الإنجليزية تحوى من السطور ضعف ما فى الصفحة العربية [١] ، وأنها لا تعرف الفراغات الكثيرة

---

(١) تشتمل الصفحة الإنجليزية على أربعين سطرا ، والعربية على اثنين وعشرين .

التى يتركها كثير من كتابنا ومترجمينا بين الجمل والكلمات والفقرات . أى أن عدد صفحات الترجمة العربية كان ينبغى أن يزيد على الثلاثمائة . فما السبب فى ذلك يا ترى ؟ لقد حذف الكاتب كثيراً جدا من الكلمات والعبارات فى حالات ، وكثيراً جدا من السطور فى حالات أخرى ، وكثيرا جدا من الصفحات فى حالات ثالثة . فعلى سبيل المثال ما من مرة وجدت قائمة بأسماء المواضع التى وقع فيها ، حسبما تقول الرواية ، اعتداء على الهندوس أو معابدهم أو ممتلكاتهم ، أو إحصاءً بأعداد القتلى والجرحى والمغتصبات والحرائق والتدميرات إلا ولاحظت أن المترجم يوجزها على نحو أو على آخر ، كأن يذكر السطرين الأولين منها ثم يقول مثلا : « وغير ذلك كثير » أو عبارة بمعناها ، أو ينتقل ببساطة إلى الكلام الذى يلى ذلك . هذا ما لاحظته بنفسى فى الصفحات التى اخترتها لأجعلها موضع مقارنة بين الأصل والترجمة . وهو نفس ما يقوله المترجم فى مقدمته للكتاب ، إذ ذكر أنه « فى الأحوال التى تكررت فيها المعلومات أو التى ضاعت فيها بعض الصفحات فى سرد عشرات الأسماء للمعابد أو القرى أو الناس كنت أقوم بالحذف بضمير مرتاح تماما لثقتى بأنها لن تؤثر إطلاقا على الناحية الفنية أو حتى من ناحية المعلومات التى تضيفها للقارئ ... وكما لا يمكن اعتبار ترجمة « پنجوين » ترجمة دقيقة للنص الأصلى بل نصا جديدا ، أعتقد أن هذا ينطبق على هذه الترجمة العربية أيضا ،

التى يمكن اعتبارها دراسة على النص وعرضا له أكثر منها ترجمة حرفية »[١] . كما أن المؤلفة قد تبدأ بعض فصول الرواية بمقدمة تاريخية قبل أن تستأنف سرد الأحداث ، لكن المترجم يهمل هذه المقدمة تماما ويدخل فى الفصل الجديد مباشرة . كذلك كثيرا ما يحذف المترجم بعض العبارات أو السطور دون سبب ظاهر . وربما كان السهو أو قفز العين من موضع إلى موضع قريب منه دون قصد هو السبب .

وبالإضافة إلى ذلك نجد أنه قد ترجم كثيرا جدا من العبارات ترجمة مقاربة أو غير دقيقة : من ذلك على سبيل المثال أن سورنچان يتساءل فيما بينه وبين نفسه : « لماذا لا يستطيع أن يقول له (أى لوطنه) : أنا ابن هذا التراب . أرجوك ، لا تسبّب لى أى أذى ؟ »[٢] ، بينما الترجمة الدقيقة هى : « اعمل من فضلك على ألا يحيق بى أى أذى » ، فالعبارة الإنجليزية تقول :[٣] *" please see that no harm comes to me "* . ومن ذلك قوله : « فى المساء السابق » بدلا من « فى عصرية اليوم السابق »[٤] ، ووصفه للمسجد البابرى بأنه « يزيد عمره على ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة » ، والصواب هو : « يزيد عمره على

---

(١) ص / ٢٠ .

(٢) ص / ٣٢ .

(٣) p . 1 .

(٤) ص / ٣٢ (P. 2) .

٤٥٠ سنة » [١] ، وتصويره لما حدث للقبة الثالثة من قباب ذلك المسجد بقوله : « انكسرت القبة الثالثة إلى نصفين » ، بينما فى النص الإنجليزى أنها « تحطمت قطعا : *broke to pieces* » [٢].

ومن ذلك أيضا نقله رأى المؤلفة فى هامشية دور الدين فى تشكيل الأساس الذى تقوم عليه الهوية القومية لأى شعب : « مما أثبت أن الدين وحده لا يمكن أن يكون أساسًا لهوية قومية » [٣] . وعدم الدقة يكمن فى إضافة كلمة « وحده » ، التى لا وجود لها فى النص الإنجليزى . وبطبيعة الحال هناك فرق كبير بين أن نقول إن الدين لا يشكل وحده أساس الهوية القومية ، وهو ما يفيد أنه عامل بين عدة عوامل ، وبين قولنا إن الدين لا يمكن أن يكون أساسًا لتلك الهوية ، بما يفهم منه أنه ليس عاملا من عواملها البتة . ومنه أيضا قوله عن بطل الرواية : « ولَدَى سورنچان اقتناع بأنه لن يتزوجها فى النهاية » ، على حين أن عبارة النص الإنجليزى تقول إنه « كان لديه هاجس مزعج بأنه لن يتزوجها فى نهاية المطاف »[٤] ، وكذلك قوله بعد ذلك بأسطر قليلة : « منزلهم مستأجر لا ملعب فيه ولا مكان للتمشية » ، إذ

---

(١) ص / ٣٢ (P. 2) .

(٢) ص / ٣٣ (P. 2) .

(٣) ص / ٣٨ (P. 8) .

(٤) ص / ٤٣ (P. 14) .

الدقة تقتضى أن نقول : « لا فناء ولا مكان على الإطلاق يستطيع الإنسان أن يتمشى فيه حافى القدمين »[١] . فانظر كيف تحول « الفناء » الى « ملعب » ، وكيف سقطت عبارتا « على الإطلاق » و « حافى القدمين » . إن ترجمة الأستاذ زكريا قد حامت حول المعنى، لكنها لم تستطع أن تقتنصه فى يديها واكتفت بالإشارة إليه من بعيد وعلى نحو ينقصه التحديد .

وفى موضع آخر نجد النص الإنجليزى يقول : « لم يكن سورنچان على يقين مما إذا كان سودهاموى يشعر بأى خوف » ، لكن الأستاذ زكريا يترجم ذلك بقوله : « لم يكن سورنچان متأكدا من مشاعر سودهاموى »[٢] . وشتان بين شعور الخوف على وجه التحديد وبين المشاعر بإطلاق . كذلك نرى سورنچان فى موقف من المواقف يفكر فى أخته على النحو التالى : « مايا المسكينة . تمنّى أن تكون فى أمان » . وليست هذه هى الترجمة الدقيقة للعبارة الإنجليزية التى تقول : « مسكينة مايا ! تمنّى أن تعيش »[٣] . وفى نفس الصفحة نسمع سورنچان يخاطب أمه قائلا : « يوما ما ينبغى أن نموت كلنا . لا

(١) ص / ٤٣ (P. 14) .

(٢) ص / ٥٧ (P. 26) .

(٣) ص / ٥٧ (P. 26) .

ترتاعى هكذا . يزعجنى أن أرى الناس مرعوبين » . والصواب أن تكون الترجمة على النحو التالى : « يومًا ما لابد أن نموت كلنا على أية حال. بحق السماء لا ترتاعى كل هذا الارتياع . الواقع أنه يزعجنى أن أراكم أيها الناس فزعين » [١] . ويقول سورنچان فى الترجمة العربية عن الجماعات الإسلامية فى بنجلاديش : « ولكنك تعلم هذه الحقارة » ، مع أن عبارة الأصل الإنجليزى هى : « ولكنك تعرف هؤلاء الخنازير »[٢] . كما يقول عنهم أيضا فى النص الإنجليزى إنهم « دجالون يحرضون الناس باسم الدين » ، لكن الترجمة العربية تقول إنهم « دجالون باسم الدين » فقط [٣] . وهى ترجمة تقريبية أو غير دقيقة كما ترى .

وفى أثناء اضطرابات ١٩٩٢م يدق أحد جيران الهندوس على سودهاموى باب البيت . وما إن يفتح له سودهاموى حتى يدخل ويرتج الباب وراءه فى الحال بسبب شدة الفزع . لكن الترجمة تكتفى بالقول بأنه «دخل البيت وردّ الباب الأمامى » . وتمضى الرواية قائلة إنه بعد

---

(١) ص / ٥٧ (P. 26) .

(٢) ص / ٦٠ (P. 29) . وقد كرّر هذه الشتيمة بنصها فى موضع آخر من الكتاب (P. 179) ، لكن المترجم نقلها هذه المرة كما هى (ص / ١٨٥) . أما وصف سورنچان لهم فى نفس السطر بأنهم « أولاد زنا » فقد حوّله المترجم إلى « أوغاد » .

(٣) ص / ٦٤ (P. 33) .

أن أرج الباب سأل سودهاموى فى صوت مكتوم *(in a subdued voice)* ، على حين تقول الترجمة إنه سأله « بصوت قلق » [١] .

وتذكر الترجمة العربية أن بعضا من أصدقاء سودهاموى قُتلوا أثناء حرب الانفصال عن باكستان ، الذى تسميه الرواية دائما بـ «الاستقلال» ، وأن الباكستانيين « بعد ذلك أخذوا أجسادهم وألقوا بها فى فضاء موحش». أما الترجمة الإنجليزية التى نقل عنها الأستاذ عصام زكريا فتقول : « إن جثثهم قد أُخذت فى شاحنات (*trucks*) وأُلقِيَ بها فى الصحراء (*in the wilderness*)[٢] .

ويصاب سودهاموى بسكتة دماغية *(a stroke)* تشله وتلزمه الفراش، لكن الترجمة تجعلها مجرد « أزمة صحية »[٣] . وتنسب الرواية إلى المسلمين فى بنجلاديش أنهم « خرّبوا آلافا كثيرة من منازل الهندوس فى بهولا » ، بينما فى الترجمة أنهم دمروا أكثر من ألف منزل فقط [٤] . وفى موضع آخر نسمع سورنچان فى النص الإنجليزى « يضحك فى صخب » ، لنفاجأ به فى النص العربى « يضحك » فحسب [٥] .

---

(١) ص / ٦٥ (P. 34) .
(٢) ص / ٦٩ (P. 38) .
(٣) ص / ١٢٤ (P. 104) . وقد تكرر هذا فى ص / ١٦٥ (P. 156) .
(٤) ص / ١٢٦ (P. 26) .
(٥) ص / ١٢٧ (P. 26) .

وحين ينظر بولوك (أحد أصدقاء سورنچان) نظرة غريبة *(strangely)* يقول الأستاذ زكريا فى ترجمته إنه « نظر ... باستغراب » [١] . صحيح أن « الغرابة » موجودة هنا وهناك ، لكن لا شك أن هناك فرقا كبيرا بين النظرة الغريبة والنظرة باستغراب .

وعندما تُخْتَطف مايا يخرج سورنچان مع صديقه المسلم حيدر للبحث عنها فى أرجاء المدينة . ولكن بعد العودة إلى المنزل دون العثور عليها يثور فى نفسه الشك فى حيدر وفى صدق تعاطفه فى هذه المصيبة ويسأل نفسه : هل كان المجهود الذى بذله معه فى البحث عن أخته « مجهودا صادقا » ؟ لكن هذا السؤال يصبح فى الترجمة العربية هكذا : « هل بذل مجهوداً هائلا فى البحث عن مايا ...؟ » [٢] . «والمجهود الهائل» ليس هو « المجهود الصادق » . أما الأب سودهاموى فإن أحزانه على ابنته المختطفة تغلبه على نفسه وهو راقد فى السرير عاجزا عن الحركة ، « وكانت عيناه تمتلئان بالدموع كل حين » ، وهو ماعبرت عنه الترجمة العربية بقولها : « مرة أخرى امتلأت عيناه بالدموع »[٣] . وهى ، كما ترى ، ترجمة ينقصها الإحكام وإصابة الهدف بدقة . ومثلها ترجمته عبارة" *among the reeds*" إلى « بين

---

(١) ص / ١٢٧ (P. 106) .

(٢) ص / ١٦٤ (P. 155) .

(٣) ص / ١٦٧ (P. 157) .

حقول القصب » ، بينما الترجمة الدقيقة تقتضى أن نقول : « بين أعواد الغاب »[١] . غير أنه لا بد من المسارعة إلى توضيح أن كلمة « القصب » تعنى «الغاب» أيضًا . لكن عبارة « حقول القصب » سوف تصرف الذهن تلقائيا إلى حقول قصب السكر ، إذ إن « القصب » (بمعنى « الغاب ») لا يُزْرَع فى حقول ، بل ينبت على ضفاف الترع ومصارف المياه . وعلى أية حال فليس فى العبارة الإنجليزية أى ذكر أو حتى مجرد إشارة للحقول .

ويتساءل سورنچان : ألم تحاول أخته الهرب من مختطفيها ؟ لكنه يعود فيرد على نفسه قائلا إنها مهما حاولت فلن تستطيع الإفلات من قبضتهم . فماذا قال عصام زكريا هنا ؟ لقد قال : « ولكن ربما تحاول ولا تستطيع التخلص من قبضتهم »[٢] . والفرق بين الأداءين واضح .

وفى اليوم الثانى عشر من أيام الرواية الثلاثة عشر تسمع الأسرة أن جثة فتاة تشبه مايا قد وُجدت طافية أسفل جسر جنداريا ، ويسود المنزل صمتٌ مرعب ، فلا صراخ ولا بكاء ولا حتى كلام ، وكأن أقل حديث سيرتد صداه عن جدار الصمت الذى يمتد داخل البيت . بيْدَ أن الأستاذ زكريا يترجم ذلك على النحو التالى : « كما لو أن أقل

---

(١) ص / ١٨٠ (P. 174) .

(٢) ص / ١٨٠ (P. 174) .

جملة تقال سيكون لها صدى على حوائط الصمت التى ترتفع حول البيت » [١] . فانظر كيف تحول « جدار » الصمت الذى « يمتد داخل البيت » إلى « حوائط ترتفع حول البيت » !

على أن الترجمة المقاربة لا تقتصر على ذلك بل تمتد إلى الأزمنة الفعلية أيضا ، إذ لاحظت أن الأستاذ المترجم مثلا يعامل فى كثير من الأحيان جميع أزمنة الفعل الماضى (من ماض بسيط ومستمر وتام) وكأنها كلها ماض بسيط ، أو يجعل الماضى حاضرا . وإليك البيان :

فمثلا يقول النص الإنجليزى عن سورنچان ما ترجمته : « كان لديه هاجس مزعج بأنه لن يتزوجها فى نهاية المطاف » ، لكن الترجمة العربية تحول زمن الكلام من الماضى إلى الحاضر (هكذا : « ولدى سورنچان اقتناع بأنه لن يتزوجها فى النهاية ») [٢] . وتقول الترجمة الإنجليزية عن سورنچان أيضا إنه « عندما كان يدرس بمدرسة القرية فى ميمنسنج اشتبك فى جدال ضخم مع ولد اسمه خالد ... » (هكذا بصيغة الماضى البسيط : " *he had a massive argument* ") ، وذلك على خلاف الترجمة العربية ، التى حولت الزمن من ماض بسيط يدل على أن هذا الحدث قد وقع مرة واحدة إلى صيغة الماضى

---

(١) ص / ٢٠٧ (P. 204) .

(٢) ص / ٤٣ (P. 14) .

المستمر بما يعنى تكرر الجدال بين الولدين : « أثناء دراسته فى مدرسة القرية فى ميمنسنج كان يدخل فى مشادات كلامية مع صبى اسمه خالد . عندما وصلت المشادات إلى ذروتها قام الصبيّان بشتيمة كل منهما للآخر بأفحش الكلمات » (١) .

وعند مشاهدة احتراق مكتب الحزب الشيوعى فى المدينة يسأل سورنچان عن السبب فى ذلك ، فيجيبه بعضهم بأن الشيوعيين قد غيّروا إستراتيچيتهم ، إلا أنهم رغم ذلك قد فشلوا فى الهرب من غضب المتعصبين المسلمين . لكن الأستاذ عصام زكريا قد أدى هذا المعنى على النحو التالى : « البعض أجاب بأن الشيوعيين غيروا إستراتيچيتهم بالفعل ، ولكنهم لا يستطيعون الهرب من غضب المتعصبين » (٢) . ومعنى ذلك أن الشيوعيين كانوا لايزالون آنذاك محصورين لا يستطيعون الإفلات من غضب المتعصبين ، على عكس ما جاء فى الأصل الإنجليزى ، الذى يشير إلى الحادث على أساس أنه قد وقع وانتهى الأمر . والطريف أن المترجم قد عكس الآية فى الجملة التى تلى ذلك ، إذ نراه قد حوّل الفعل من المضارع المستمر (الدال على أن الأمر المشار إليه كان يحدث آنذاك) إلى الماضى (الذى يعنى أن الحدث قد وقع

---

(١) ص / ٥٦ (P. 25) .

(٢) ص / ٦٠ (P. 28) .

وانتهى الأمر) ، ثم عاد فعكسها مرة أخرى بتحويله شيئا قد وقع وانتهى إلى شيء لم يحدث بعد . وأسوق الآن الجملة كما وردت في الأصل الإنجليزي ، ثم مترجمة بقلمي إلى العربية ، ثم أتبعها أخيرا بترجمة عصام زكريا :

**Comrade Farhad had apparently died* (1) *and a grand funeral was being organized, a Milad had been called which had been attended by all* (2).

** وقد مات الرفيق فرهد فيما يبدو . وهناك جنازة ضخمة يتم تنظيمها الآن ، وأقيم تأبين حضره الجميع .

*** الرفيق فرهد مات على ما يبدو . وهناك جنازة ضخمة تم تنظيمها والدعوة إلى حفل تأبين يحضره الكل (٣) .

وبالمثل نجد مترجمنا يقول عن سورنچان : « اليوم كما لو أن قوة غريبة تنزع عنه صوته » ، بما يفيد أن الأمر كان لايزال يحدث آنذاك ، بينما يقول الأصل الإنجليزي : « اليوم كما لو أن قوة غريبة كانت قد

(١) استخدمت الرواية الماضي التام هنا ، لأن السّرد فيها يتم بصيغة الماضي البسيط ، وهذه الجملة قد وردت في صيغة الكلام غير المباشر . أما في ترجمتي فقد لجأت إلى الماضي البسيط على أساس أنني أنقل كلام المتحدث مباشرة .

(٢) (P. 28) .

(٣) ص / ٦٠ .

تركته أبكم » (١) . وكذلك نجده يعلق بلسان سورنچان على أحداث العنف الطائفى فى بنجلاديش قائلا : « لا أكاد أصدق أن تحدث مثل هذه الأشياء فى دولة علمانية » ، على حين أن الترجمة الدقيقة ينبغى أن تكون على النحو التالى : « لا أكاد أصدق أن هذا الأمر كان يمكن أن يحدث فى دولة علمانية » (٢) . كذلك ففى الوقت الذى تقول فيه الترجمة الإنجليزية على لسان حيدر صديق سورنچان ما معناه : « هناك اجتماع فى بيت رئيس الحزب اليوم أيضا . وربّما كانوا يرتّبون الآن للقيام بمسيرة » نجد الترجمة العربية تقول : « ... قد يرتّبون لمسيرة » (٣) . والفرق بين استعمال الزمن فى الترجمتين غير خافٍ .

ويتساءل سودهاموى (أبو مايا ، التى اختطفها المختطفون) : « ترى لماذا لم يكن من الممكن أن يموت هو وتبقى مايا حية ؟ » . لكن العبارة تتحول فى النص العربى إلى : « لماذا لا يستطيع أن يضحى بحياته فى سبيل إنقاذ مايا ؟ » (٤) . وفى اليوم العاشر تقول الكاتبة إن كيرونمويى « كانت قد أتت » إلى غرفة سورنچان مرة فى الصباح ، لكن المترجم العربى لا يهتم بهذا التدقيق الزمنى ويؤدى العبارة على

(١) ص / ٦٤ (P. 33 -34) .
(٢) ص / ٦٦ (P. 35) .
(٣) ص / ١٦٥ (P. 155) .
(٤) ص / ١٦٧ (P . 157) .

هذا النحو : « جاءت كيرونموى إلى حجرته فى الصباح »[١] .

ويقول سورنچان فى ردّه على صديقه الذى أخبره بأن الجماعة الإسلامية قد نبشت المقابر الجماعية لهؤلاء الذين سقطوا أثناء حرب الانفصال عن باكستان : « ... وبمرور الأيام سوف يحطمون أيضا بنجلاديش الصامدة واستقلال الوطن الذى نالوه بكفاحهم ... » ، لكننا نفاجأ بأن هذا المعنى قد تُرْجِم على النحو التالى : « حتى إذا حطموا الاستقلال غير المرئى والوطن نفسه بكل من حاربوا لأجله فمن يمكنه أن يمنعهم ؟ »[٢] .

ولأن الفعل الإنجليزى فى الجملة التالية : *" Sure, acquaintances and Muslim friends visited them once in a while "*[٣] جاء فى صيغة الماضى البسيط رأينا المترجم ينقله نقلا حرفيا على هذا النحو: « بالتأكيد معارفهم وأصدقاؤهم المسلمون قاموا بزيارتهم من وقت لآخر»[٤]. لكن لا بد من التنبيه إلى أن هذه الصيغة مثلما تُسْتَخْدَم للدلالة على وقوع الحدث فى الماضى مرة واحدة ، تُسْتَخْدَم كذلك للدلالة على تكرر وقوعه فيه . والترجمة الدقيقة للعبارة ينبغى أن تكون

---

(١) ص / ١٩٣ (P. 193) .

(٢) ص / ٢٠٨ (P. 205) .

(٣) P. 215 .

(٤) ص / ٢٢٠ .

هكذا : « بالتأكيد كان معارفهم وأصدقاؤهم يزورونهم من آن لآن » ، وذلك بسبب مجيء عبارة « *once in a while* : مرة كل فترة / من آن لآن » ، التى تعنى تكرر وقوع الزيارة .

ويدخل فى عدم الدقة أيضا نقل المترجم بعض أسماء الأعلام نقلا لا يطابق النطق الصحيح لها فى الإنجليزية ، التى نقل عنها . من ذلك اسم أم سورنچان ، الذى يكتبه هكذا : « كيرونموى » ، والذى كان ينبغى أن يكتب على النحو التالى : « كيرونمويى » ، إذ هو بالإنجليزية " *Kironmoyee* " . وقد كُتب عشرات المرات (وربما مئاتها) بهذه الطريقة ، لكن المترجم كتبه ناقصا ياء فى هذه المرات العشرات أو المئات أيضا .

ومثل ذلك كتابته اسم "*Nonigopal*" "قريب سودهاموى « نونيچوبال »، مع أن جيمه كما ترى جيم قاهرية ، وباؤه باء ثقيلة ، أى أنه كان ينبغى أن يكتب هكذا : « نونيجوپال » . وهذا الاسم قد تردد عدة مرات فى الفصل العاشر . وفى ذات الفصل ورد اسم « *Manikgonj* : مانيكجونچ »[1] ، الذى كتبه المترجم على هذا النحو : « مانيكجونى » . ولعله سهو منه ، إذا ربما قرأ حرف

(١)ص / ١٩٣ (P . 194) .

الـ « j » على أنه « *i* » . ومن هذا أيضـا كتابـة اسم بطـل « الأم » لمكسيـم جـوركـى « *Pavelvolascov* » علـى النحـو التالـى : « بايلولاسـوف » [١]، وكـذلك كتابة اسم « *Jamaat Shibeer* : جماعة شبير » هكذا : « جماعة شيبر »[٢] . وقد تكرر هذا الخطأ .

على أن المسألة لا تقف عند عدم الدقة فى نقل المعنى ، بل تتجاوز ذلك إلى الترجمة الخاطئة أحيانا :

فمثلا يقول النص الإنجليزى عن أخت سورنچان فى بداية الفصل الأول إنها « كانت تذرع الغرفة ذهوبًا وجيئة ثم شرعت تدور فى أرجاء البيت دون هدف »[٣] ، لكن إذا عدنا إلـى الترجمـة وجـدناها تقـول إنهـا « دخلت وخـرجت ، ثم بدأت تتـمـشـى بلا هدف فى أنحـاء البيت » [٤] ، مع أن عبارة" *she paced up and down the room*" لا يمكن أن تعنى هذا الذى قاله المترجم بحال .

وحين يدمر الوحوش المتعصبون المسجد البابرى فى الهند تعلّق الرواية على آثار هذا العمل الوحشى قائلة ، ضمن ما قالت، إنه « قد

---

(١) ص / ٦٠ (P . 28) .
(٢) انظر مثلا ص / ٦٠ (P . 29) .
(٣) . P. 2
(٤) ص / ٣٢ .

أضرّ بالطائفة الهندوسية أيضا *" (It) had damaged the Hindu Community as well "* [(١)] . أما الترجمة فإنها تقول ما نصه : « كما أنه يضر بالوحدة الوطنية بين الهنود أيضا »[(٢)] ، وهو شيء مختلف إلى حد كبير كما لا يخفى على أحد .

وفى ترجمة الفقرة المقتبسة من خطاب مجيب الرحمن فى أنصاره قبيل انفصال باكستان الشرقية عن أختها الغربية يخطئ الأستاذ زكريا ، إذ بدلا من أن يقول : « إذا أُطْلِقَتْ رصاصة واحدة أو مات واحد من رجالى فإننى أطلب منكم جميعا أن تحولوا بيوتكم كلها إلى قلاع » ، وهى الترجمة الصحيحة لما قاله مجيب الرحمن ، نراه يقول : « ... فإننى أطلب أن تتركوا بيوتكم لتقيموا المتاريس » [(٣)] . ولست أفهم كيف وقع فى هذه الغلطة .

وفى الصفحة الأربعين من الترجمة العربية نجد خطأين فى أرقام الإحصائيات ، إذ جاء فيها أن نسبة الهندوس فى عام ١٩٤١ م لم تتجاوز ٢٨ ٪ ، والصواب أنها لم تتجاوز ٣٨ ٪ [(٤)] . أما نسبة الـ ٢٨ ٪ فهى خاصة بإحصاء ١٩٤٧ م كما جاء بعد ذلك بسطرين فى النص

---

(١) P. 3 .

(٢) ص / ٣٣ .

(٣) ص / ٣٨ (P. 8) .

(٤) P. 11 .

الإنجليزى . وفى إحصاء ١٩٨١م يقول النص العربى إن نسبتهم كانت ١ر٢١٪ [١] ، على حين أنها فى الأصل الإنجليزى ١ر١٢٪ [٢] .

وحين يمرض سودهاموى وينتقل إلى المستشفى كان بلال صديق ابنه مواظبا على زيارته . وتمضى الرواية فتقول إنه « لم يكتف فقط بالسؤال عن حالة سودهاموى الصحية ... بل ... » ، إلا أن الترجمة العربية تخطئ هنا قائلة إنه « لم يتوقف لحظة عن التفكير فى صحة سودهاموى ... » [٣]. وحتى يحكم القارئ بنفسه ها نحن هؤلاء ننقل إليه العبارة الإنجليزية : *" He did not stop at merely enquiring about Sudhamoy's health ".* وواضح أن المترجم لم يتنبه إلى الفرق بين *" to stop doing something "* و *" to stop at doing something "* ، فالأولى تعنى التوقف عن فعل الشىء ، أما الثانية فمعناها الاكتفاء بفعله .

وفى الصفحة الخامسة والعشرين من الترجمة الإنجليزية نقرأ العبارة التالية فى معرض وصف سورنچان بسعة الأفق ورحابة الفكر والشعور : « أعلن (سورنچان) أنه قبل كل شىء إنسان أولا وبنغالىّ العِرْق ثانيا » .

---

(١) ص / ٤٠ .

(٢) P. 11.

(٣) ص / ٥٥ (P. 24) .

أما فى الترجمة العربية فقد « أعلن سورنچان أنه بعد كل شيء وقبله إنسان بنغالى العرق »[١] .

ويترجم الأستاذ زكريا عبارة " *Kaiser broke through the crowd* " قائلا : « انشق قيصر عن الزحام »[٢] ، رغم أن المعنى الصحيح هو العكس تماماً ، علاوة على عدم معقولية ما قال ، إذ كيف ينشق الإنسان عن الزحام؟ إن الزحام ، بالعكس من ذلك ، هو الذى ينشق عن الإنسان .

وبنفس الطريقة المعكوسة ينقل المترجم عبارة المؤلفة "*Dusk had fallen over the city* " بقوله : « ضوء الغسق كان يسقط على المدينة »[٣] ، مع أن المقصود هو أن الظلام قد هبط . و« الظلام » عكس « الضوء » بطبيعة الحال .

وبنفس الطريقة أيضا يترجم عبارة "*Suranjan choked on his food* " بقوله : « ابتلع سورنچان طعامه »[٤]. والترجمة الصحيحة هى أن نقول : « غصّ بطعامه » .

ويقع الخطأ كذلك فى ترجمة كلمة « *the Jamaatis* » ، إذ

---

(١) ص/ ٥٦ .

(٢) ص / ٦٤ (P. 34) .

(٣) ص / ١٢٤ (P. 103) .

(٤) ص / ١٢٥ (P . 104) .

يجعلها الأستاذ المترجم « الجماعات »[١] . والصواب هو « الجماعتيون » ، أى أعضاء الجماعات الإسلامية فى بنجلاديش .

وعندما تتهم الرواية المسلمين فى بنجلاديش بأنهم ، أثناء اعتدائهم على بيوت الهندوس وتدميرها وسرقة ما فيها ، قد أخرجوا الأسماك من بِركها " *from their ponds* " نجد المترجم يقول إنهم « أخرجوا الأسماك من أحواضها »[٢] . والأحواض غير البِرك بالتأكيد .

وعلى أية حال فهذه الغلطة لا تصل فى فداحتها إلى ما وصل اليه الخطأ فى ترجمة كلمة " *gym* "(اختصار " *gymnasium* ")بـ « دار عبادة »[٣] ، إذ لا علاقة بين الأمرين من قريب أو بعيد : لا من ناحية المعنى ، ولا من ناحية الهجاء فى أية من اللغتين . ومن هنا فمن الصعب نسبة ذلك إلى السهو .

وفى أسفل الصفحة الرابعة والخمسين بعد المائة نجد سورنچان يشك فى اهتمام حيدر بالبحث معه عن مايا أخته ويقول لنفسه : « ولو فكرنا فى الأمر فلن يبدو أن البحث كان يمثل لحيدر كبيرَ أهمية » ، لكن الترجمة العربية تقول : « فكر سورنچان فى أن البحث نفسه لم

---

(١) ص / ١٢٦ (P. 105) ، وكذلك ص / ١٨٣ (P. 176) .

(٢) ص / ١٢٦ (P. 105) .

(٣) مثلما أن" rep, vet , doc "مثلا اختصار لـ " representative , veterinary , doctor " على الترتيب .

يكن عملا كبيرا بالنسبة لحيدر »[١] .

هذا ، ولا بد من تكرير القول بأن هذه الملاحظات هى حصيلة المقارنة بين نحو أربعين صفحة فقط فى النص العربى وما يقابلها فى الأصل الإنجليزى . وقد أغفلتُ ملاحظات أخرى فى هذه الصفحات نفسها التى لا تمثل إلا سدس النص الإنجليزى تقريبا .

وبعد ، فإن ثناء الأستاذ رجاء النقاش على ترجمة الرواية يثير قضية شديدة الأهمية ، وهى كيف يُصْدر ناقد أدبى ، وبخاصة إذا كان مخضرمًا ومشهوراً كرجاء النقاش ، حكما أدبيا كهذا الحكم الذى أصدره دون أن يقوم بما يستوجبه من الفحص والدراسة ؟ إننى لا أقول إن هذه الترجمة لا تصلح بأى حال ، بل قلت إن فيها جانبًا سليما ، وجانبا آخر تقريبيا ، وجانبا ثالثا خاطئا . والجانبان الأخيران ليسا بالصغيرين . وهو جهد مشكور من الأستاذ زكريا رغم كل شىء ، إذ يكفى أنه عرّفنا على أية حال بما قالته تسليمة نسرين ، فضلا عن أن واحدا مثلى ما كان ليفكر فى البحث عن الترجمة الإنجليزية ما لم يكن عصام زكريا قد نقلها الى العربية . ويذكرنى حكم الأستاذ رجاء النقاش بحكم المسؤولين عن إصدار « روايات الهلال » على ترجمة د . محمد مندور لرواية فلوبير « مدام بوفارى » عن الفرنسية ، التى

(١) ص / ١٦٤ (P. 154) .

صدرت عن دار الهلال (فى جزأين فى شهرى إبريل ومايو ١٩٧٧م) ، إذ وصفوها بأنها « ترجمة كاملة ودقيقة » [١] ، مع أننى حين قمتُ بالمقارنة بين الأصل الفرنسى وترجمة د . مندور وجدت فيها أخطاء كثيرة فاحشة ، علاوة على الأغلاط النحوية والصرفية ، مما يملأ بضع عشرات من الصفحات . وقد وقفت فى البداية حائرا فى تفسير الأمر ، إذ كيف يقع د . مندور ، وهو الذى قضى فى فرنسا ما يقرب من عشر سنين ، فى مثل هذه الأخطاء التى لا يقع فيها إلا الشداة ؟ ثم انتهيت إلى أنه قد يكون ترجمها فى بدايات إقامته فى فرنسا قبل أن تستحصد معرفته بلغة الفرنسيين . أما الأخطاء النحوية والصرفية فقد وجدت أشباهًا لها فى خطاباته التى كان يرسلها من باريس إلى أستاذه الدكتور طه حسين فى تلك الفترة نفسها والتى قرأتها منذ عدة أشهر فى كتاب « طه حسين ومعاصروه » الصادر فى سلسلة « كتاب الهلال » فى مايو ١٩٩٤ م . ولست أظن هذا الحكم الذى حكمتْ به دار الهلال على ترجمة د . محمد مندور لرائعة فلوبير إلا مجرد حكم مرسل ليس له أساس من المقارنه بين النص الفرنسى ونظيره العربى .

ويمكن أن نلحق بهذا الباب أيضا نَشْر بو بكر حمزة فى صدر

---

(١) انظر ظهر غلاف كل من الجزأين المذكورين .

ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم [١] ما كان قد كتبه الشيخ أحمد بن حمزة الرفاعي خادم الحرم النبوى الشريف فى الستينات من تقريظه له وتمنيه من صميم قلبه الانتشار والرواج لتلك الترجمة التى لم تكن قد ظهرت بعد ، ودعائه له بأن يجزيه الله الجزاء الأوفى .

وقد قمتُ ، وأنا فى لندن منذ سنوات ، بدراسة هذه الترجمة ، وكتبت عنها فصلا بيّنت فيه عددا من الأخطاء المخيفة التى وقع فيها الشيخ بو بكر حمزة والتى ما زلتُ أتعجب كيف صدرت عن مسلم يؤمن بنبوة محمد ﷺ وعصمة الوحى ، إذ ادّعى أن الآيات التى تروى قصة نوح عليه السلام مع ابنه فى سورة « هود » قد وُضعت فى القرآن فى غير موضعها ، وأن الآيتين الثانية والخمسين والرابعة والخمسين من سورة « الأنفال » كانتا فى الأصل آية واحدة وصلت اللجنة التى شُكّلت لجمع القرآن فى خلافة عثمان رضى الله عنه بروايتين مختلفتين ، لكن تلك اللجنة لما لم تستطع أن تحدد الرواية الصحيحة منهما قامت بإثبات الروايتين فى المصحف كما هما ، وغير ذلك مما أوردتُه فى الفصل الرابع من الباب الأول من كتابى « المستشرقون

---

(١) كان وقتها شيخ المعهد الإسلامى التابع لمسجد باريس . وهو عربى من أصل جزائرى . وتقع الترجمة فى مجلدين كبيرين . وكان قد شرع فيها عام ١٩٦٦ م ، وظهرت فى باريس عام ١٩٧٢م .

والقرآن » ورددتُ عليه وأظهرت تهافته وعواره . والسؤال الآن هو : لماذا أقدم المترجم على نشر هذا التقريظ فى صدر ترجمته ، وهو أول من يعرف أن الشيخ الرفاعى لم يقرأ هذه الترجمة بل لا يستطيع أن يقرأها لأنه يجهل اللغة الفرنسية أصلا ؟ أعتقد أنه أراد أن يوهم القراء بأن ثناء الشيخ الرفاعى الشديد ورجاءه الانتشار والرواج لترجمته ودعاءه الحار له إنما يعنى أنه راضٍ عن الترجمة ومحبِّذٌ ماجاء فيها .

على أن أشد الأحكام التى من هذا النوع إغراقا فى المبالغة هو وصف د . عبد الرحمن بدوى ترجمة المستشرق البريطانى آربرى للقرآن إلى الإنجليزية بأنها أجمل الترجمات القرآنية فى لغات العالم قاطبة [(١)] . وهو حكم عجيب يستحيل تقبله ، إذ من ذلك الذى يستطيع الادعاء بأنه قد قرأ كل ترجمات القرآن فى جميع اللغات وفاضل بينها ووجد أن ترجمة آربرى هى أجملها ؟ إن ترجمة آربرى هى فى الواقع جميلة ، ولكن من لنا بأنها أجمل الترجمات فى كل اللغات ؟

ومنذ نحو سنة نشرت سلسلة « كتاب الهلال » (فى عدد سبتمبر ١٩٩٥ م) ترجمة كتاب قاسم أمين " *Les Egyptiens* " بقلم

---

(١) انظر كتابه « موسوعة المستشرقين » / ط ٢ / دار العلم للملايين / بيروت/ ١٩٨٩م / ٨ .

حفيده وسميّه قاسم أمين . وهى ترجمة ناقصة فصلين ونصفا . وكان من واجب الأستاذ المترجم ودار الهلال معًا أن ينبها القارئ إلى هذا . كذلك كان ينبغى على دار الهلال أن تعهد إلى من يراجع الكتاب حتى يخرج للقراء بريئا من ضعف الأسلوب وأخطاء الترجمة مما اكتشفتُه حين راجعت الكتاب على أصله الفرنسى ، الذى كنت قرأته أيام أن كنت أدرس بأكسفورد . وقد قمت ، عقب صدور الترجمة ، بعمل دراسة عنها ضَمَّنتُها ملاحظاتى حول ما وجدته فيها من نقص وأرسلتها إلى مجلة « إبداع » ، ولكنها لم تُنشَر حتى الآن !

والغريب أن الأستاذ المترجم يقول فى مقدمة الكتاب إن هذه أول مرة يظهر فيها كتاب جده باللغة العربية (١) ، مع أن هناك ترجمتين للكتاب ظهرتا قبل ذلك بوقت طويل : إحداهما قام بها الأستاذ محمد البخارى رحمه الله ونشرها د . محمد عمارة فى منتصف السبعينات ضمن « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » ، والثانية بقلم الأستاذة سعاد التريكى وصدرت عن « بيت الحكمة » فى تونس عام ١٩٩٠ م . وكلتا الترجمتين أفضل من ترجمة الأستاذ قاسم أمين (الحفيد) ، فضلا عن أنهما ترجمتان كاملتان .

ولا بأس أن نشير كذلك إلى الترجمة التى نُشرت فى عدد سبتمبر

---

(١) انظر ص / ٧ من مقدمة كتاب « المصريون » / كتاب الهلال / سبتمبر ١٩٩٥م.

١٩٩٥ م أيضا من مجلة « القاهرة » لدراسة المستشرق الفرنسى جاك بيرك عن القرآن الكريم ، والتى قام بها وائل غالى (شكرى) . وهى ترجمة لا تطاق بسبب ما تعجّ به من ركاكة ورداءة وغموض . ومن حقنا أن نتساءل : كيف أفسحت مجلة « القاهرة » صدرها لهذه الترجمة التى استغرقت بضع عشرات من الصفحات ذات القطع الكبير ؟ أليست هذه مهزلة ؟

ملاحق الكتاب

١ - تسليمة نسرين*

ولدت تسليمة نسرين فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٩٦٢م بمدينة ميمنسنج فى بنجلاديش . وقد حصلت على درجة البكالوريوس من كلية الطب بتلك المدينة ، واشتغلت طبيبة حكومية لعدة سنوات . وبدأت حياتها الأدبية بكتابة الشعر ونشره ، ثم أخذت بعد ذلك تكتب عمودا لعدد من الصحف البنجلاديشية فى ذات الوقت ، إلى جانب الروايات والمقالات أيضاً .

وقد حصلت تسليمة على جائزة ماننداً پوراسكار فى كلكتّا عام ١٩٩٢م ، وجائزة ناتوسابها پوروسكار فى دكا عام ١٩٩٣م .

وبسبب تهديد بعض المتشددين الإسلاميين لها بالقتل فرّت تسليمة نسرين إلى السويد فى أغسطس١٩٩٤م . وكانت قد ظلت مختفية لعدة أشهر من جراء الدعوات المطالبة برأسها ، إذ كانت قد

(*) الوثائق الثلاث التالية من نَشْر " Index on Censorship " . وقد زودنى بها مشكورا أحد طلابى فى الدراسات العليا بآداب عين شمس، وهو الباحث محمد مصطفى الدبيسى ، جزاه الله خيرا . وقد قمت بترجمتها من اللغة الإنجليزية .

كتبت مقالا صحفيا دعت فيه إلى وجوب إعادة النظر فى القرآن ، مما أشعل غضب الأصوليين المسلمين ضدها .

وقد رصدت الجماعات الإسلامية المتشددة مكافأة قدرها خمسة آلاف من الدولارات لمن يقتلها . ومن المفروض أن تَمْثُل أمام المحكمة فى بنجلاديش بدعوى إيذائها للشعور الدينى لدى المسلمين . وقد نشرت صحيفة النيويورك تايمز عن ناطق بلسان التحالف المكون من ثلاث عشرة جماعة أصولية قوله : « إذا لم تقم الحكومة بإعادتها إلى البلاد ومحاكمتها فإن الشعب سوف يسقط هذه الحكومة ويتولى محاكمة زعمائها لما اقترفوه من خيانة للإسلام » .

وقد ردت تسليمة على ذلك بأن أقوالها قد حُرِّفت ، لكنها أضافت قائلة : « لا بد من إحداث تغييرات فى القوانين الجامدة التى تمنع كثيرا من النساء فى بنجلاديش من العمل خارج البيت » .

٢ - حقوق النساء

بقلم تسليمة نسرين

أحب أن أعبر عن عرفانى الصادق بالجميل لمنظمى هذا المؤتمر على دعوتهم لى لأكون بينكم هنا .

لقد أقبلت من بنجلاديش البعيدة . وبرغم أن عدد سكان ذلك البلد يبلغون مائة وعشرة ملايين نسمة فإنهم ليسوا فى الواقع سوى أمة صغيرة فى شبه القارة الهندية . إن بنجلاديش هى إحدى أفقر عشرين دولة فى العالم ، لكن اللغة البنغالية والشعب البنغالى أبعد ما يكونان عن الفقر والحرمان .

وقد أُنشئت باكستان الشرقية ، التى أصبحت بعد ذلك بنجلاديش ، فى ١٩٤٧م ، عام الحصول على الاستقلال ، وذلك باقتطاع جزء من المنطقة التى تتحدث البنغالية . وكانت باكستان الشرقية جزءا من باكستان الكبرى ، أما الجزء الآخر فكان يقع على بعد آلاف الأميال غربى الهند . وكانت هذه الدولة الفريدة والمستحيلة ثمرة من ثمار الاستعمار الأجنبى . وبتقسيم الهند خلق المستعمرون هذه الدولة الفريدة للأقلية المسلمة فى شبه القارة الهندية . وبرغم أن

هذه الأمة قد أُنشئت على أساس من الدين فإن الناس فى باكستان الشرقية سرعان ما تنبهوا إلى أن المسلمين فى غرب باكستان يفرضون سلطانهم الاستبدادى على مسلمى شرق باكستان . ليس ذلك فقط ، بل إن باكستان الغربية قد حاولت أن تفرض سيطرتها على لغة باكستان الشرقية وثقافتها باسم الدين . ونتيجة لهذا الظلم انفجرت الثورة ، التى تبعتها حرب التحرير . وفى النهاية برزت بنجلاديش أمة مستقلة ذات سيادة .

وكنت فى التاسعة من عمرى حينذاك . ولا تزال ذكريات طفولتى تمتلئ بأحداث الحرب والميلاد الدموى المؤلم للأمة الجديدة . وقد نذرت نفسى منذ ذلك الحين لخدمة الهدف السياسى السامى المتمثل فى بنجلاديش المستقلة .

ولقد عرفتُ بكل فخر أن بنجلاديش هى وطن البنغاليين . ورغم أن المسلمين يشكلون الأغلبية فى بنجلاديش فإن هناك ناساً من ديانات أخرى يعيشون إلى جانبهم فى ذلك البلد من بوذيين ونصارى وهندوس . إن بنجلاديش بلد ذو ثقافة مختلطة ، وهذه الثقافة هى فى الحقيقة من صنع شعب ينتمى إلى عدة ديانات .

ولو أنكم أضفتم إليهم أولئك البنغاليين الذين يعيشون فى الهند

لارتفع عدد الناس الذين يتحدثون البنغالية إلى نحو مائتى مليون .
وعندما كبرتُ ووعيتُ أصبحتُ أدرك بفخرٍ قيمة التراث الغنى لهذه اللغة . إن الأدب البنغالى المكتوب يرجع على أقل تقدير إلى ألف سنة مضت . وفوق ذلك فإن هذه اللغة ، مثَلها فى هذا مثَل أنهار بلادى ، تتدفق منذ مئات السنين . وفى الواقع هناك فيضان من الإنتاج الأدبى البنغالى منذ القرن التاسع عشر . وأنا هنا أشير إلى أدب البنغالَيْن كلتيهما ، لأننى رغم التقسيم السياسى والجغرافى أنظر إلى الثقافة والأدب البنغاليين على أنهما شيء واحد لا يقبل الانقسام .

وعندما أتأمل كنوز الأدب البنغالى الحديث بعظمته وثرائه وتنوعه فإننى لا أستطيع أن أعد نفسى أكثر من مجرد كاتبة عادية جدا .
وأعتقد أنكم تعرفون أن الكاتب البنغالى العظيم رابندرانات طاغور قد فاز بجائزة نوبل لعام ١٩١٣م ، ثم لم يحدث أن فاز بهذه الجائزة أحد ممن يكتبون بالبنغالية . لكننى أستطيع أن أؤكد لكم أننا نقرأ منذ الثلاثينات من هذا القرن أعمال كثير من الشعراء والروائيين البنغاليين الذين يضاهون أعظم الأدباء فى العالم . وإليكم الآن أسماء عدد منهم ممن يُعَدّون عظماء بكل المقاييس ، وهم تاراشنكار بنديوبادياى

وبيبهوتيبهوسن بنديوپادياى ومانك بنديوپادياى وسيد ولى الله وقاضى نصر الإسلام والشاعر چيباناننذا . وهناك كثير من الشعراء والروائيين وكتاب القصة القصيرة الجادين الذين يكتبون بالبنغالية حاليا والذين يحتل بعضهم مكانة كبيرة فى نظرى وليست لدىّ الشجاعة لمقارنة نفسى بهم . لكننى بكل تواضع أستطيع أن أقول عن نفسى إننى ، وإن كنت كاتبة صغيرة بالقياس إلى غيرى ، يكفينى أننى مختلفة عنهم. فأنا لست شيئا آخر غيرنفسى . إننى وحيدة . إننى مسافرة تعانى من الشعور بالوحدة . إننى أسير وحدى فى طريقى الخاص بى . وهأنذى أرى أن رحلتى الموحشة قد أتت بى إلى هذا البلد البعيد .

والحق أنه لم يَدُر بخَلَدى أننى سأكون كاتبة فى يوم من الأيام . لقد بدأت أقرض الشعر منذ الطفولة ، وكان أخى الأكبر يصدر مع أصدقائه مجلة شعرية مما يسمى مجلة صغيرة . وقد نشرتُ إنتاجى أول ما نشرته هناك فى تلك المجلة ، لكن ليس فى هذا أى شىء غير عادى . لقد كتب أحد الأجانب ذات مرة : فى دبلن كل الناس روائيون ، وفى كلكُتّا كل الناس شعراء . وهو ما يصدق كذلك على دكا عاصمة بنجلاديش ، التى يقوم إلى جانبها عدد آخر من المدن

البنغالية الكبرى . وكانت عيناى تتفتحان شيئا فشيئا فى الوقت الذى كنت مستمرة فيه فى كتابة الشعر . وكنت أرى الفرق الكبير بينى وبين أخى ، إذ كانت القيود تحيط بى من كل جانب . وهذا الفرق موجود فى كل مكان بين الأولاد والبنات الذين يدرسون معاً فى الكليات .

ثم بدأت أدرس الطب . ووالدى هو أيضاً طبيب نذر حياته للعلم والمنطق . وهو الذى ألهمنى دراسة الطب الحديث ، تلك الدراسة التى جعلت منى فتاة عقلانية . وهنا بدأت فى إلقاء الأسئلة . ورأيى أنه لايصح الحكم على أى سؤال بأنه لا يجوز . وفوق ذلك فإن من حقى أن أطرح ما أشاء من الأسئلة حول أى موضوع . وقد آلمنى ما كانت تعانيه النساء المريضات فى المستشفى من سوء التغذية ، فضلا عن جهلهن وخوفهن ، فرأيت أنه لابد لى من عمل شىء ما . لكننى كنتُ محرومة من جميع الحقوق ومن الحرية . وقد ارتبط هذا السؤال الأساسى بأسئلة أخرى كثيرة ، مثل : أليس للنساء الحق فى التعليم ؟ أليس لهن الحق فى التمتع بالصحة الطيبة والحياة السعيدة ؟ أم تراهن لم يُخْلَقْن إلا للحمل والولادة ، وليس لحياتهن من معنى سوى خدمة الذكور ؟ أمن المعقول أنهن قد حُرِمْن من كل إحساس خاص بالبهجة والمسرة والتطلع ؟

لقد عبرت في شعرى ونثرى وكل نتاجى الأدبى عما قاسته المرأة من حرمـان وما وقع عليها من استغلال طوال قرون في ظل هذا الوضع ، وكان صوتى عاليا . وهذه هى الجريمة التى أدّت بى إلى مغادرة وطنى . ولكن على الرغم من أننى قد أتيت إلى الغرب بطريقة شرعية وبإذن من الحكومة ، فإننى لا أعرف متى يمكننـى العـودة إلى بلادى . ذلك أن القضـية المرفوعة ضدى لا تزال قائمة ، وكذلك حملة الكراهية التى أثارتها ضدى الجماعات الأصولية . وهم حتى الآن مازالوا يطالبون بإعدامى شنقاً أمام الملإ .

وحجتهم فى ذلك أننى قد آذيت المشاعر الدينية لدى غالبية الشعب . وقد رفضوا أن يستمعوا إلى كلماتى البسيطة ، وحاولوا على العكس من ذلك إثارة الشعب المعروف بنزعته الدينية ضدى ، وذلك باتهامى بأنى قلت ما لم يكن ينبغى أن أقوله . لقد كنت أقول دائما إن من غير الممكن تغيير قَدَر المرأة مادمنا نتمسك بالقيود التى تفرضها عليها الكتب المقدسة . ومن رأى الكثيرين أنه لا بد من تغيير الشريعة ، لكنى أرى أنه لا يمكن عمل أى شىء ذى بال عن طريق تعديل التشريعات الدينية . إننى أريد قانونا مدنيا موحّدا يطبّق على الرجال والنساء جميعا .

والحق أنه لا يوجد أى غموض أو شكّ فى كلامى عن الدين والكتب المقدسة . وإذا كنت أنا وكثيرون غيرى نستطيع أن نرفض النظام الدينى ونرى هذا الرفض حقًا من حقوقنا ، فإن لغيرنا أيضا الحق فى أن يتمسكوا بأديانهم . لكن هذا شىء ، واستغلال الدين فى إرهاب أصحاب الديانات الأخرى والانحطاط بالمرأة إلى مرتبة الأَمَة هو شىء آخر تماما.

والواقع أن ثورتى إنما تنصب على هذا اللون من « التشدد الدينى » كما يسمونه . وهناك مثل قديم يقول إن الشيطان نفسه يستشهد فى كلامه بالكتاب المقدس . لكننى اكتشفت أن الأصوليين لايرضون بمجرد الاستشهاد بالكتب المقدسة . إنهم يجعلون من الدين سيفا يمتشقونه لتجريد المرأة من إنسانيتها وحقوقها . والحق أن اضطهاد النساء فى بلادى يتم الآن باسم الدين على أشكال مختلفة . إننا نعرف ذلك كله ، ونرى كيف أن النساء يتساقطن واحدة وراء الأخرى ضحايا لفتاوى المشايخ ، الذين يعزفون على أوتار كثير من آيات القرآن للإبقاء على النساء مكبّلات خلف الحجاب . وهناك أكثر من ألف منظمة غير حكومية تعمل فى بنجلاديش وتقوم بأنشطة تنموية . وتساهم كثير من المؤسسات الأجنبية بسخاء فى أموال هذه

المنظمات . وقد استفادت المرأة الريفية أيما استفادة من هذا النشاط ، لكن المشايخ يحرّضون الشعب منذ فترة ضد هذه المنظمات . بل إنهم قاموا أيضا بحرق المدارس ومنع النساء من الخروج من المنازل . وهذا الظلم يعود بنا إلى القرون الوسطى ، وهو ظلم موجّه أيضا إلى الكتّاب الذين يؤمنون بالتسامح الدينى ، ويقفون فى وجه الاضطهاد الذى يمارَس باسم الإسلام ضد أصحاب الديانات الأخرى ، ويحبّذون الدولة العلمانية ، ويعملون لبناء مجتمع حديث قائم على امتزاج الثقافات . ولست بالنسبة للمشايخ أكثر من حجة يتخذونها لفرض مواقفهم وآرائهم . وهم يهدفون إلى جعل بنجلاديش دولة دينية يكون فيها جميع الأقليات مواطنين من الدرجة الثانية .

وهذه الظاهرة قد أزعجتنى إزعاجا شديدا . وفى نوبة من نوبات الألم العميق قمت بتأليف كتيّب يسمى « لاجا » (أى العار) ، وكان ذلك فى بداية عام ١٩٩٣م . ولهذا الكتاب قصة ، ففى ديسمبر ١٩٩٢م وقع حادث بربرى فى الهند ، إذ هدم الأصوليون الهندوس مسجداً يعود تاريخه إلى أربعة قرون خلَتْ ، مما أدى إلى وقوع مصادمات بين الهندوس والمسلمين مات فيها الكثيرون . وعلى الجانب الآخر من الحدود ، أى فى بنجلاديش ، بدأ

اضطهاد الأقلية الهندوسية ردًا على ما حدث . وقد رأيت أن هذا وضع لا يمكن احتماله ، وأنه لا بد من الاحتجاج ، إذ لا يصح أن يكون الرد على البربرية ببربرية مثلها . ويصوّر الكتيّب المذكور تجربة إحدى الأسر الهندوسية التى تعيش فى بنجلاديش ، كما أنه يقدم أيضا بعض الحقائق والأرقام المتعلقة باضطهاد الأقليات فى بلادى . وقد رفض كثير من الناس فى بنجلاديش أن يروا إلى أى مدى بلغ بى الألم واليأس ، هذا المدى الذى دفع فردا مثلى من الأغلبية إلى تسجيل ما تتعرض له الأقلية من مصائب وبلايا ، وبدأوا يتهموننى بأننى إنما ألّفت هذا الكتاب خدمةً لأهداف الأصوليين الهنود . لكن الحقيقة العارية هى أننى قد هاجمت فى هذا الكتاب جميع الأصوليين من كل الأقطار ، أولئك الذين يضطهدون باسم دين من الأديان أتباعَ دين آخر . إن « العار » فى الواقع هو عار على بلدى ، وعلى حكومة بلدى ، وعلى مجتمعى ، وعلىّ أنا أيضًا . ذلك أننا قد انحرفنا جميعا عن مثلنا الأعلى . انحرفنا عن إنسانية الإنسان . إن البلد الذى كان عند بروزه إلى الوجود دولة علمانية قد عاد فجعل من الإسلام دينه القومى ، وإن الوطنية التى كان ينبغى أن تحمى الثقافة البنغالية المشتركة تضع نفسها الآن فى خدمة الأصولية . لقد غضب منى الأصدقاء والمثقفون « التقدميون » بسبب هذا الكتاب ،

وكان سؤالهم هو : هل نحن جميعا متعصبون وطائفيون ؟ والجواب : كلا على الإطلاق. وإننى أعتقد أن الأغلبية فى بنجلاديش هى أغلبية طيبة ومتسامحة وغير طائفية . لكن بعد ذلك كله كيف يمكننا أن ننكر أننا ، رغم الجهود المكثفة ، لم نستطع أن ننقذ امرأة هندوسية أو نمنع أسرةً بنجلاديشية من مغادرة البلاد ؟ أليس هذا عاراً علينا ؟

إننى لا أريد أن آخذ كثيرا من وقتكم ، لكن قبل أن أنهى حديثى أحب أن ألفت انتباهكم إلى بعض الحقائق . لقد سُحِب جواز سفرى منى ، كما صودر كتابى « العار » . لكننى ، رغم مصادرته فى بنجلاديش ، أشعر أن الكثيرين يعدونه تصويرا حقيقيا لانقسام المجتمع على أساس أغلبية وأقلية . أما المشايخ فقد أصدروا ضدى الفتاوى ، وأعلنوا أكثر من مرة عن جوائز مالية لمن يأتيهم برأسى ، كما طالبوا بقتلى مرارا فى دكا وغيرها من المدن . وقد ظلت الحكومة لوقت طويل تشاهد فى صمت ما يجرى أمامها ، ثم بادرت بعد ذلك بإصدار أمر بالقبض علىّ ، مما اضطرنى إلى الاختباء . ولكن فى النهاية كان لابد من أن أسلّم لهم نفسى . وقد أفرجت الحكومة عنى بكفالة وسمحت لى بمغادرة البلاد . وأنا الآن حرة . والفضل فى هذه الحرية إنما يعود إلى الكتّاب والمثقفين فى كثير من البلاد ،

وكذلك إلى كثير من المنظمات النسائية التى حاربت من أجلى بكل ضراوة . والحقيقة أن الحب والعطف اللذين أفاضهما هؤلاء وأولئك على كاتبة صغيرة مثلى هو شىء لا نظير له .

وأخيرا فرغم أنى لستُ من أصحاب النظريات ، فإن السبب وراء انتشار الأصولية فى أرجاء العالم هو أمر يدعو إلى التأمل والتحليل . وليس الإسلام هو القوة الوحيدة فى هذا المجال . وفى البلاد المسلمة أيضاً لا تنقطع المناقشات والبحوث حول هذا الموضوع ، حيث يخضع كل شىء ، من التاريخ إلى الجغرافيا إلى الاقتصاد إلى السياسة إلى الثقافة ، للمراجعة والاختبار . ومهما يكن الأمر فلست بحاجة إلى القول بأن الأصولية ليست هى القوة الدافعة الوحيدة فى الأقطار الإسلامية ، ولا حتى فى جنوب شرق آسيا . ومن ثم فإننى غير مستعدة للاقتناع بما يقال من أن ما نشهده الآن هو الطبعة الحديثة للصراع القديم بين النصرانية والإسلام . وأيا ما يكن السبب فإننى أعتقد أن الأصولية الدينية ، مثَلها فى ذلك مثَل قوى الظلام الأخرى جميعا ، شر وبلاء . ولا بد من التصدى لها ومحاربتها أيا كان الدين الذى تضطهده .

وهأنذى أقطع على نفسى العهد أمامكم بأن أستمر فى كفاحى

من أجل حرية المرأة وتحررها وتقدمها وتطورها . إننى لا أدرى مدى نصيب شعرى من الشاعرية ، ولا مدى نصيب نثرى من الجودة ، ولا مدى نصيب رواياتى من الإتقان ، لكننى أدرى بالتأكيد أننى لم أكتب ما كتبت بقلمى وحده ، بل وضعت فيه عصارة روحى . إننى لا أدرى أتصل كلماتى إلى قلوب الآخرين أم لا . لكننى بالتأكيد أعرف هذا الذى سأقوله معرفة اليقين ، وهو أن النساء فى بلادى يدركن أننى إنما كتبتُ ما كتبت من أجلهن . من أجل هؤلاء النساء الخُرْس البُكم اللائى تتمزق قلوبهن ولكن شفاههن تعجز عن التعبير بالكلمات .

صقيع فى روحى

بقلم تسليمة نسرين

ها هى ذى سنة قد مرت وزاد عمرى سنة أيضا ، لكن السنة الجديدة لم تأتنى بأى وعدٍ أو أمل فى الحرية . إن المنفى يبدو وكأنْ لا نهاية له . ترى إلى متى سأظل أحيا حياة الغربة فى بلد غريب ؟ الواقع أننى لا أستطيع أن أرى أى سبب للشعور بالأمل فى الغد الآتى .

والواقع أنه لو طُلِب منى أن أتمنى أمنية واحدة لكان جوابى على الفور : أريد العودة إلى بلادى بنجلاديش . لقد مرت سنوات كثيرة منذ أن غادرت أرض الوطن . سنوات كثيرة منذ أن ألقيت لآخر مرة بنظرة على وجهه الجميل . وأحيانا ما أشعر أننى على شفا الجنون ، أما بالنسبة لمن يحكمون علىّ من ظاهر أحوالى فإننى لا بد أن أكون سعيدة راضية ، إذ لست أشعر بأى قلق من جهة الطعام أو الملبس أو المأوى ، وذلك على عكس معظم الناس فى بنجلاديش . كذلك لم تعد حياتى مهدّدة كما كان الحال قبلا ، فلا فتوى ولا مظاهرات ضدى . ومع هذا فلم يعد هناك ذلك التدفق العفوى فى كتاباتى .

إن ناساً كثيرين جدا هنا يحيطوننى بالرعاية والصداقة ، لكننى لا أستطيع القول بأننى سعيدة ، فقد اقتُلعَتْ جذورى من التربة التى نبتُّ فيها ونَمَوْتُ حتى أصبحت ما أنا عليه الآن . إن أوروبا هى « بلاد الأحلام » فى نظر الكثيرين . ولكن أى شىء أنا هنا ؟ أنا إنسانة بلا جذور فى هذه الأرض الغريبة . إنسانة ليس لديها شعور بالانتماء . مجرد نبات آخر من البلاستيك فى زهرية مطلية لا تتفتح فيها أزهار . بل إن البراعم نفسها لتصوّح قبل أوانها بوقت طويل .

ومع ذلك فإننى أحس فى أعماقى بالرغبة فى الخلق ، وفى الإزهار مرة ثانية . أريد أن أعود من جديد إلى الكتابة . لكننى فى العام المنصرم لم أستطع أن أكتب شيئا غير القصائد . قصائد نابعة من دموع روحى المحبطة وتنهداتها . لقد استطعت فقط أن أصور اشتياقى إلى أن أصبح طائرا حتى أطير عائدة إلى وطنى الحبيب . إننى أذكر كيف أن الطيور فى الشتاء تقوم برحلاتها الطويلة قادمةً من بلاد باردة سحيقة مثل سيبيريا إلى بنجلاديش سعيا وراء الدفء وضوء الشمس . أنا أيضا كنت رهينة برودة الحبس الشتائية فى بلادى حينما صدرت الفتوى ضدى وأُعلن عن مكافأة لمن يأتى برأسى . لكن أوروبا هى التى أسبغت علىّ الحماية وأنقذت حياتى ، ولن أستطيع أبدا نسيان هذا الكرم الدافىء الذى أبدته نحوى .

لكن قلبى مع ذلك ما زال مشتاقا إلى العودة . إلى أن أبدأ حياتى من جديد كاتبةً فى البيئة التى أِلفْتها وبين أبناء وطنى الذين أعرفهم . إلى أن أجلس خلف مكتبى القديم وفى يدى قلمى . ترى أتظل بنجلاديش هى الصقيع الأبدى الذى علىّ أن أقاسى آلامه ؟

الفهـرسـت

نبـذه عــن المؤلــف



د. إبراهيـم عـوض

* ليسـانس آداب جامعـة القاهـرة ١٩٧٠ م
* دكتوراه مـن جامعـة أوكسفورد ١٩٨٢ م
* له عدد من المؤلفات النقدية والإسلامية منـــها :

- المتنبى - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- المتنبى بإزاء القـرن الإسـمـاعـيلى فى تاريخ الإسـلام (مـترجم عن الفرنسيـة)
- المســتشـــرقــــون والقــــرآن
- ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيــات الشــيطانية
- الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد
- النابغــــة الجعـــدى وشعــــره
- مـــن ذخائـــر المكتبـــة العربيـــة
- السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية)
- جمال الدين الأفغانى - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل

مكتبـة زهـراء الشـرق

١٩٩٦م